خرائط وسيناريوهات جديدة في الشرق الأوسط والعالم

تأليف

د. محمد مورو



بطاقة فهرسة

حقوق الطبع محفوظة

مكتبة جزيرة الورد

اسم الكتاب: خرائط وسيناريوهات جديدة في الشرق الأوسط والعالم

تأليف: د. محمد مورو

رقم الايداع /٢٠١٧/٣١٤٦

الترقيم الدولى / ٩-٥٧-٦٥٦٥-٩٧٧-٩٧٨

الطبعة الأولى ٢٠١٦



القاهرة: ٤ ميدان حليم - خلف بنك فيصل

شارع ٢٦ يوليو - من ميدان الأوبرا

٢٧٨٧٧٥٧٤ - ٠١٠٠٠٠٠٤٠٤٦

Tokoboko_5@yahoo.com

المقدمـــة

هذا الكتاب محاولة لاستشراف المستقبل، إنه يرصد السيناريوهات والمخططات والخرائط الجديدة، التي يمكن أن يسفر عنها الصراع في المنطقة، وذلك لكي نستعد لمواجهة الموقف الجديد، فنخرج من المعارك منتصرين، أو في أقل الأحوال تقليل حجم الخسائر ما أمكن ذلك.

نحن إذن بصدد خرائط جديدة، وما يمكن أن نطلق عليه حدود كيري - لافروف، (على غرار حدود سايكس بيكو).

نحن أمام مخطط جهنمي يستهدف تمزيق السعودية وزوال دول خليجية من الخريطة، وتقسيمه على أسس طائفية وعرقية ودينية ومذهبية، تمزيق كل من تركيا وإيران والسعودية، وقبلهم العراق وسوريا ولبنان، وهذا كله محتمل جدا، بل واحتمالاته حتى الآن كبيرة جدا.

وهناك محاولة لإضعاف مصر أو تمزيقها، ولكنى أري أن مصر ربما تكون هي الدولة الوحيدة التي ستنجو من هذا المخطط، لأسباب موضوعية أو حتى كجزء من إرادة الله تعالي في حفظ مصر وأهلها، وكذلك تمزيق ليبيا والجزائر والمغرب ومزيد من تمزيق السودان.

الكتاب كذلك يطرح فكرة إمكانية نشوب حرب عالمية ثالثة وكيف ستكون هذه الحرب، وأين تقع وما هي نتائجها المحتملة.

الكتاب أيضا ينبه الغافلين من الأفراد والجماعات والدول مما يخطط لها حتى لا يكتشف هذا أو ذاك بعد فوات الأوان، أمريكا وإسرائيل قد استخدمتهم في معارك بالنيابة عنهم.

ومن القضايا التي نبهت لها أن أمريكا تستخدم الإسلاميين في تبرير الرأسمالية وإعادة إنتاج العولمة، فإذا نجحوا كان ذلك نوع من القضاء على فكرة المقاومة الموجودة في الإسلام، وصياغة إسلام أمريكي الجوهر، رأسمالي في جوهره، ومتصالح مع القيم الحضارية الغربية، ومتنازل عن الثوابت الإسلامية.

وكذلك تحدثت عن تبني الاشتراكية ولاهوت التحرير الإسلامي في مواجهة المشروع الغربي الرأسمالي، وتعرضت للنظام الاقتصادي في الإسلام المغاير تماما للرأسمالية والماركسية، وكذا أسلوب التنمية المستقلة غير التابعة، وهذا بالطبع يستدعي تطوير الفقه أو إنتاج فقه جديد، يراعي الظرف الحالي الذي يسيطر فيه الغرب والرأسمالية على العالم وهو ما أسميته فقه الإقلاع، وأن الانتصار للمظلومين فريضة إسلامية.

هذه وغيرها من القضايا تحتاج إلى تعمق أشد، ودراسة أوسع، وهذه

مسؤولية الأجيال الجديدة من المفكرين الإسلاميين والمثقفين المحترمين من كافة الاتجاهات، فهو أمر لا يستطيع فرد واحد إنجازه، ويا حبذا لو كان مسؤولية مؤسسات بحثية ودراسية تملك الإمكانيات والخبرات التي تسمح لها بإنجاز مشروع بديل في مواجهة هذه المؤامرات من التفكيك والتوريط وتبرير الرأسمالية وغيرها.

يجب أن أشير هنا إلى أن ما قلته بشأن بعض الأفكار الجريئة والمعلومات الصادمة للبعض والقضايا المسكوت عنها، هو جزء من مسؤولية المفكر، فالمفكر هو زرقاء اليمامة بالنسبة إلى أمته أو شعبه أو قومه، وإذا جاز للبعض السكوت، فإن هذا لا يجوز بالنسبة للمفكر، قد يغضب البعض مني، وغضبهم يحزنني ويؤثر عليّ شكلا ومضمونا، ولكن الحق أحب من إرضاء هذا أو ذاك، والتنبيه إلى الأخطار التي تحيق بأمتنا، أهم من رضا هذا وغضب ذاك، وفي المراحل الخطيرة من التاريخ ومع الأزمات الكبري ينبغي على الجميع التحلي بالشجاعة والصدق.. والله من وراء القصد.

ألا هل بلغت.. اللهم فاشهد...

د. محمد مورو

القاهرة ٢٠١٦/١٠/٣٠

خرائط وسيناريوهات جديدة
في الشرق الأوسط والعالم

في تسعينيات القرن الماضي، انتشرت على نطاق واسع ما يسمى بخريطة حدود الدم، والتي نسبت لمراكز صنع القرار الأمريكي، وضباط مخابرات، بل ومفكرين أمثال برنارد لويس، وأن هذه الحدود ستقوم على أساس طائفي وديني وعرقي، أي إغراق المنطقة في الدم، لأن الدويلات الناشئة ستتقاتل مع بعضها، وفي الحقيقة فإن تمهيدات فكرية وسياسية قد سبقت ذلك منها نظرية صمويل هاتنجتون عن صراع الحضارات، وأن الصراع بين الشيوعية والرأسمالية سيصبح صراعا بين الحضارات الأوروبية والكونفوشيه والإسلامية.. إلخ، وكذلك ظهور نظرية الفوضي الخلاقة للوزيرة الأمريكية كونداليزا رايس.

وكان من الطبيعي وبناء على ذلك التمهيد أن نتوقع فوضي وثورات وحروب ودماء غزيرة الهدف منها كان واضحا بالتدريج، فقد تم غزو أفغانستان ٢٠٠١ والعراق ٢٠٠٣ ثم الصراع في ليبيا وسوريا منذ ٢٠١١

وحتى اليوم، ومحاولة جر مصر إلى الحرب الأهلية ولكنه فشل في ذلك، واستخدام تونس كحقل تجارب أولية يتم تعميمها بعد ذلك، ثم الصراع في اليمن، وظهور داعش.

كانت الخرائط المنشورة منذ تسعينيات القرن الماضي، تتحدث عن تقسيم العراق إلى ثلاث دول (سنية وشيعية وكردية)، ثم إقامة دولة للأكراد على حساب العراق وتركيا وإيران وسوريا، أي تفكيك سوريا وتركيا وإيران، وكذلك تفكيك السعودية بحيث ينضم شيعة المنطقة الشرقية إلى إيران وتكوين دولة شيعية كبرى في إيران والسعودية والعراق والبحرين وسوريا ولبنان، وكذلك زيادة رقعة الأردن بضم مناطق من السعودية إليها، وعمل إدارة إسلامية عالمية لمكة والمدينة على غرار الفاتيكان.

أي المحصلة تقسيم كل هذه المنطقة، وفي أفريقيا يتم تفكيك مصر إلى عدة دول، دولة إسلامية وأخرى مسيحية وأخرى نوبية، وتقسيم ليبيا إلى ثلاث دول أيضا في الشرق والغرب والجنوب وتقسيم دول المغرب إلى دول عربية وأخرى أمازيجية وثالثة أفريقية وهكذا.

ولكن الواضح أن تلك الخرائط تطورت، وأصبح هناك سيناريوهات جديدة، فإذا بدأ بداعش، فإن إخراجهم من الموصل والعراق عموما ثم من الرقة في سوريا، عاجلا أو آجلا يعني أنهم سيذهبون إلى الصحراء

أو تركيا. فيقومون بعمليات إرهابية في تركيا. تضعف تركيا بالإضافة إلى عنف الأكراد والنتيجة تقسيم وتفكيك تركيا، والذين سيذهبون إلى صحراء العراق، سيتجهون بالضرورة إلى السعودية أو الأردن، فإذا ما أحسنوا الاختيار، فإن الأردن هي وجهتهم، فإذا نجحوا في السيطرة على الأردن - وهذا صعب جدا - لأنهم سيكونون على حدود إسرائيل، الأمر الذي يربك كل الخطط الأمريكية الصهيونية، ويمكن أن يحدث تضامن وتعاطف عربي وإسلامي وعالمي واسع معهم، لأنهم سيكونون في مواجهة إسرائيل بل ويمكن أن يحرروا فلسطين، ولكن يجب أن ندرك أن ذلك يعني الصدام مع الجيش الأردني، وهو جيش قوي متماسك، والجيش الصهيوني، والأمريكي والجيوش الأوروبية حتى قبل أن يزحفوا على الأردن، التي لهم فيها قاعدة شعبية كبيرة، فالجيوش الأردنية والصهيونية والأمريكية والأوروبية لن تسمح بذلك، حتى لا تكون داعش حركة تحرر وطني إسلامي قومي، تجمع الجميع حولها في مواجهة إسرائيل، وتربك كل حسابات الأمريكان والأوروبيين والروس وغيرهم. إنه سيناريو خيالي ولكنه جميل، ويجب أن ندرك هنا، أن الفصائل الإسلامية مثل جبهة النصرة على حدود إسرائيل، وهذه لا تهاجم إسرائيل ولكن للأسف تتعاون معها، ويلقي جرحاها العناية في المستشفيات الإسرائيلية، وحتى الآن فإن داعش ليست في تماس مباشر

مع إسرائيل اللهم إلا في سيناء، التي بايع الجهاديون فيها داعش وأبوبكر البغدادي، وقال الناس: لماذا لا يضرب هؤلاء إسرائيل؟، بل يركزون على ضرب الجيش المصري المسلم، وحتى إذا افترضنا أنهم يكفرون الجيش المصري والشرطة المصرية، والشعب المصري عموما، فلماذا لا يكفرون الجيش الإسرائيلي والشعب الإسرائيلي؟، ولابد من تفسير هذا الأمر الغريب الذي يقدح في مصداقية داعش الإسلامية التي أعادت الخلافة ومارست الجهاد، والتفسير الصحيح هو أن المنظمات الإسلامية التي تقاتل الجيش المصري في سيناء، ليست في حقيقتها إلا ذراع إخوانية وليست داعشية، وأنها بايعت داعش كنوع من المراوغة وخلط الأوراق، والقوى الإخوانية تقاتل داعش في ليبيا، خصوصا في سرت، فهم يقاتلون داعش في ليبيا على الأرض، تحت مظلة من الطيران الأمريكي، وهم يقاتلون داعش في سوريا، وفي العراق، تحت مظلة جوية أمريكية أيضا، بل وانضموا إلى الحشد الشعبي الشيعي في العراق لمقاتلة داعش.

إذن فلا يمكن حساب المنظمات المسلحة في سيناء على داعش، بل على الإخوان المسلمين، الذين تحالفوا مع أمريكا في العراق وسوريا ومصر وليبيا وكل مكان.

والطريق الثاني للدواعش هو الذهاب إلى السعودية، وهناك قاعدة واسعة للسلطة الجهادية، إذن التعليم السعودي والمزاج السعودي هو

سلفي بالضرورة، ومن ثم فهناك حاضنة شعبية لداعش، وهؤلاء يمكن أن يقيموا دولة في نجد والحجاز وهذا عين ما تريده أمريكا، فتصبح داعش إحدي أدوات تمزيق السعودية، ويسمح لإيران أو الدولة الشيعية المرتقبة في إيران والعراق والبحرين باحتلال شرق المملكة وضمها إلى تلك الدولة الشيعية، على أن تؤول المناطق الغربية في السعودية إلى النفوذ المصري، وكذلك فإن شعب اليمن الذي تم توريط السعودية في ضربه وغزوه، سيزحف سلما أو حربا على نجران وجيزان ويضمها إلى اليمن، ومن ثم تتفكك السعودية نهائيا، وهذا المخطط الأمريكي الذي اتضح في صدور قانون جوستا، الذي يبيح لضحايا ١١ سبتمبر بمقاضاة السعودية وطلب التعويضات، المقدرة بـ٣ , ٣ تريليون دولار، أي إفلاس السعودية بالكامل، هو أحد الآليات الأمريكية لتفكيك السعودية، بحيث يصبح جزء منها تابع لليمن، وجزء تقيم فيه داعش دولتها، ويمكن تركها تعيش بعض الوقت، وتقيم دولتها في صحراء الجزيرة العربية، لسحب كل الجهاديين إلى الصحراء وإبعادهم عن أوروبا وأمريكا وتركيا وغيرها، بالإضافة طبعا إلى ترك المناطق الشيعية في المملكة في المنطقة الشرقية لصالح الدولة الشيعية المرتقبة، وترك الغرب السعودي للنفوذ المصري، مع إقامة إدارة إسلامية دولية لمكة والمدينة على غرار الفاتيكان.

ونحمد الله تعالى أن الجيش المصري لم يتورط في اليمن أو سوريا

أو غيرها، لأن المخطط كان يريد توريط هذا الجيش في سوريا واليمن لصالح المشروع الأمريكي، ثم يتم استنزاف وإضعاف هذا الجيش تماما، لاحظ هنا أن ما يقرب من عامين من الحرب السعودية والخليجية على اليمن، لم يؤدي إلى شيء، ومازال الحوثيون وأنصار عبدالله صالح يقاتلون، وبسبب القصف السعودي على المدنيين في اليمن، تعاطف الشعب اليمني مع المقاومة للغزو السعودي، وأصبحت القبائل تقف مع الحوثيين وصالح، رغم الخلاف الفكري والعقائدي، لأن الأمر تحول إلى شيء وطني، يرفض الغزو الأجنبي، وأصبح الفرز في اليمن على أساس، من يدعم الغزو الخارجي ومن يقف مع الوطن، أما الجنوب اليمني، ففضلا عن رغبة موجودة لدي الجنوبيين للاستقلال من جديد، فإن هؤلاء لا يريدون الغزو الخارجي، أما القاعدة وداعش في اليمن خاصة في الجنوب، فيركزون ضرباتهم على القوات الموالية للسعودية، وهؤلاء حققوا ضربات موجعة لتلك القوات في الجنوب، خاصة في مراكز التدريب في عدن وغيرها.

المخطط بالطبع يستهدف تفكيك مصر، ولكنه فشل في ذلك، وإذا كان الجيش العراقي والجيش السوري قد ضعفا فلا يبقى في مواجهة إسرائيل إلا الجيش المصري، الذي يتم إضعافه، وصحيح أنه لم يستدرج إلى مستنقع اليمن وسوريا، إلا أن النشاط الأمريكي في مصر عن طريق

القوى الإعلامية والليبرالية والإخوانية، يضعفها بالتمرد والمظاهرات والشائعات، والمساهمة في زيادة الأزمة الاقتصادية الطاحنة.

وفي كل الأحوال، فإن كثيرا من المراقبين يرون أن مصر هي التي ستنجو من هذا المخطط، خصوصا إذا وقعت حرب عالمية بين روسيا وأمريكا، لأن مصر لم تتورط في المستنقع، أو لأن قدر الله تعالى سوف ينجي مصر من هذه المؤامرة.

المؤامرة على مصر بالشائعات والحصار وإضعاف الاقتصاد واستنزاف الجيش المصري في سيناء، والتجهيز لقوى مسلحة متطرفة في ليبيا، تقوم بالزحف على مصر من الغرب وهذا يجعلنا نناقش الشأن الليبي، وليبيا تمزقت وضعفت، وأصبح شعبها لاجئا في الدول الأخرى بعد القضاء على نظام القذافي، والشعب في داخل ليبيا، دولة البترول والفوائض الاقتصادية الكبيرة، لا يجد قوت يومه، هذا الشعب أصبح ممزقا بين جيش خليفة حفتر في الشرق والوسط والجنوب وبعض الغرب، وجيش مصراتة والجماعة الإسلامية المقاتلة والإخوان في الغرب، والقبائل وداعش في الجنوب، وداعش في سرت وبعض المناطق، إذن هي ثلاث قوى تتصارع جيش حفتر، ثم داعش، ثم ميليشيات الإخوان والجماعة الإسلامية المقاتلة وكتائب مصراتة، ويحدث صدام بين الجميع، فداعش تصطدم أحيانا مع حفتر في الشرق خاصة في درنة وبني غازي وتصطدم

أيضا مع الميليشيات الإسلامية وكتائب مصراتة في سرت والغرب والوسط، ولديها فائض احتياطي كبير في دول نيجيريا والنيجر وتشاد، وبوكو حرام، يمكن أن يمدها بالمدد، حتى لو خسرت سرت، فستجد حاضنة شعبية في بني الوليد أو في الجنوب، وهكذا فالمسألة معقدة.

والغرب الليبي ليس خالصا لكتائب مصراتة أو الميلشيات الإسلامية، فهذه تتقاتل مع بعضها يوميا في طرابلس، ولا يمكن أن تتوحد، وهناك قبائل في الزنتان وتاجوراء موالية لجيش خليفة حفتر، ويمكننا أن نقول إن القبائل الليبية الموالية للقذافي انقسمت ما بين مؤيد لحفتر، ومؤيد لداعش وحتى أحمد قذاف الدم نفسه يشيد ويدعم داعش.

المسألة إذن معقدة وهناك تدخل أمريكي غربي في ليبيا، وهناك عمليات جوية، وقوي على الأرض، ففرنسا مثلا تدعم حفتر، وكذا مصر والإمـــارات، وتركيا وقطر يدعمان كتائب مصراتة والإخوان والجماعة الإسلامية المقاتلة، وأمريكا وأوروبا تدعم ميليشيات وقوى بهدف السيطرة على الهجرة غير الشرعية من شواطئ ليبيا، أو بحثا عن غنيمة البترول الليبية الكبري، ومصر دفاعا عن حدودها الغربية تدعم حفتر وعقيلة صالح، وتقوم بعمليات عسكرية نوعية في ليبيا، على أساس أنه كان ولابد من تقسيم ليبيا إلى شرق وغرب وجنوب، فإن المنطقة الشرقية - غرب مصر - أي بني غازي وما حولها والهلال النفطي

يكون من نصيب مصر، وهؤلاء الذين يسيطرون على شرق ليبيا يرحبون بالدور المصري، بل يدعون إلى التدخل المصري في ليبيا، في إطار الصراع السياسي مع الآخرين.

وصحيح أن الأمور لن تستقر في ليبيا سريعا ولكن الجانب المصري، يدرك أنه لابد من تأمين حدوده الغربية وأخذ نصيب في كعكة البترول والإعمار في ليبيا ولو في إطار المنطقة الشرقية الليبية.

الخطر الداعشي في ليبيا، ربما يكون أشرس من الخطر في سوريا والعراق، فليبيا ليس لديها جيش متماسك ومناطق الصحراء الأفريقية مرتع للدواعش، وهناك بوكو حرام التي بايعت داعش، وقوى إسلامية تابعة للقاعدة أو داعش في تونس والجزائر والمغرب.

وهكذا فإذا كون هؤلاء قاعدة متماسكة في ليبيا أو النيجر أو مالي، فإنهم سيشكلون خطرا كبيرا على تونس والجزائر والمغرب، ومع وجود مشاكل عرقية مثل مشكلة الأمازيج الموجودون في ليبيا والجزائر والمغرب، يمكننا أن نفهم المخطط الغربي لتمزيق الشمال الأفريقي العربي برمته.

***

روسيا وأمريكا والصين ليسوا بعيدين عما يحدث في المنطقة، ولكل مصالحه وأهدافه، فروسيا تبحث عن استعادة دورها المفقود، بعد سقوط الاتحاد السوفيتي السابق، وقد استطاعت أن تنهي عقود الهيمنة الأمريكية

على العالم وعصر القطبية الأحادية، وأصبح هناك نوع من التوازن الدولي، فروسيا استعادت القرم، وتحدت الغرب في أوكرانيا، ودخلت سوريا، وأقامت قاعدة عسكرية ضخمة في طرطوس، وأخرى في أحميم، والطرادات النووية الروسية تجوب البحر المتوسط، والطيران الروسي في كل مكان في سوريا، وروسيا لا تريد للنظام السوري أن يسقط، لأن سقوطه يعني ضياع حلمها في الوصول إلى المياه الدافئة، وسوف يتسبب سقوطه أيضا في تشكيل خطر عليها نفسها داخل روسيا، وكذلك يعيد أمريكا إلى الانفراد بالعالم، ولذلك فإن روسيا سوف تفعل كل شيء حتى تحافظ على ما حققته من نفوذ في سوريا، وتسعي أيضا إلى عمل قاعدة عسكرية في سيدي براني بمصر، ليكون لها شأن في الموضوع الليبي وكعكة البترول والإعمار، وكذلك تريد قاعدة في المغرب، وهناك نوع من الموافقة الملكية المغربية على ذلك لأن الكثير من حلفاء أمريكا، أدركوا أن روسيا عائدة بقوة، والمشروع الأمريكي في المنطقة يفشل وينهزم، بما له من تداعيات كبري، وحتى تركيا تحاول استرضاء روسيا، إلى درجة مهاجمة أمريكا علنا وإثارة المشاكل معها حول تسليم فتح الله كولن أو غيرها، ولكن المسألة ليست بهذه السهولة، فهناك أكبر قاعدة أمريكية خارج أمريكا في أنجرليك بتركيا تابعة لحلف الأطلنطي، والأمور معقدة جدا، لأن لأمريكا أوراق مع الأكراد يمكن تحريكها ضد تركيا.

وإذا ما استمر السيناريو بهذه الطريقة، فإن الحرب العالمية الثالثة يمكن أن تقع، قد يقول البعض إن هناك عقلاء في أمريكا وروسيا، وأنا شخصيا أشك في ذلك، فلو كان هناك عقلاء في الغرب والشرق، لما وقعت حربان عالميتان.

فسيناريو الحرب موجود واحتمالاته قائمة، بل إن الحرب مستعرة حتى الآن بوكلاء، فإيران والحكومة السورية والعراقية وكلاء لروسيا، والمعارضة السورية المسلحة والسعودية وقطر وكلاء لأمريكا، ويمكن أن يمتد اللهب، فتشتعل الحرب العالمية الثالثة، والمرشح الجمهوري دونالد ترامب قال: إن خطة الديمقراطيين أوباما وهيلاري كلينتون ستؤدي إلى حرب عالمية ثالثة.

وهذه الحرب إن حدثت - ومن المرجح حدوثها في غضون خمس سنوات - ستكون إما شاملة بمعنى أن يتم تدمير قطاع كبير من روسيا وأمريكا معا، وهذا خير للعالم كله، وطريقة لنهاية أمريكا والرأسمالية التي تسببت في الشقاء للعالم، أو تكون محدودة بمعنى أن تقوم روسيا بإطلاق قنابل نووية تكتيكية على قاعدتي العيديد والسيلية في قطر، ومثلها على قاعدة أنجرليك بتركيا، وفي المقابل تقوم أمريكا بإطلاق قنابل نووية على إيران وكوريا الشمالية، وهذا السيناريو هو المرجح، وبذلك تكون الحرب على أرضنا والضحايا من عندنا، ويصل العالم إلى حالة من التوازن على حسابنا.

أما الصين فإما أنها ستدخل إلى جانب روسيا، أو أنها ستكتفي بالفرجة والزحف الاقتصادي، كما تفعل الآن، وتسقط أمريكا اقتصاديا بالحلول محلها في أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية، وفي النهاية سيكون هناك ثلاث أقطاب في العالم أمريكا وروسيا والصين.

علي أن هناك سيناريو موجود، وهو أن أمريكا ستنهار من الداخل، فديونها المالية زادت عن ٢٠ تريليون دولار وأموالها الورقية خارج أمريكا أكثر من ١٠ تريليون دولار أي أن هذا نقد زائف وقوة اقتصادية زائفة، فلو عادت هذه الأموال إلى أمريكا لسقطت في ساعات، لأن معناه أن السوق به ١٠ تريليونات دولار زائدة عن القيمة الحقيقية للاقتصاد الأمريكي، وهي أشبه بأن أمريكا طبعت ١٠ تريليون دولار على المكشوف وهذا يحدث اضطرابا هائلا، وإذا كانت الدول تحتفظ بمليارات الدولارات لديها، لأن الدولار هو العملة العالمية الأكثر انتشارا، فهذا يعطي قوة زائفة للاقتصاد الأمريكي، الذي يصدر أوراقا مقابل بضائع وخدمات بحوالي ١٠ تريليون دولار، إنها نوع من اللصوصية للعالم، إنه الدولار اللص ولكن إذا أفاق العالم وتعامل بغير الدولارات، وعادت تلك الأوراق إلى أمريكا لسقط الاقتصاد الأمريكي في ساعات.

وهناك أيضا ظهور حركات انفصال في الولايات المتحدة المختلفة،

وسوف تزداد هذه المطالب بالطبع، وربما تتفكك أمريكا.

وهناك وجود خلل كشفت عنه حالة الانتخابات الأمريكية الأخيرة، حيث ثبت أن هناك تزوير وضغوط فجة وواضحة، واكتشف الجمهور الأمريكي أن عصابة لصوص تحكم واشنطن من جمهوريين وديمقراطيين، وتململ الجمهور الأمريكي، وعاجلا أو آجلا سينقض على هذه العصابة ويدمرها، فلن يقبل الأمريكان استمرار تلك المسرحية الهزلية لتقسيم المصالح بين رجال واشنطن، كما يسميهم الجمهور الأمريكي، والمتهمين بالفساد والبيروقراطية والتزوير سواء كانوا جمهوريين أو ديمقراطيين.

***

ما هو مستقبل إيران في هذه المعمعة، إيران التي حققت ثورة إسلامية شيعية ودعمت حماس والجهاد الإسلامي وحزب الله، وقطعت علاقتها بإسرائيل، وتزعم أنها تريد إزالة إسرائيل من المنطقة على أساس أنها غدة سرطانية يجب بترها، والتي قالت إن أمريكا هي الشيطان الأعظم، وهي نفسها التي ساعدت أمريكا في دخول أفغانستان ٢٠٠١، ثم العراق ٢٠٠٣، وهي التي وقعت الاتفاق النووي مع أمريكا ودول أخرى، وحصلت بموجب ذلك على أكثر من ١٠٠ مليار دولار، كانت متجمدة في أمريكا وبنوك الغرب، واستخدمت تلك الأموال في دعم بشار الأسد، والقوى الشيعية في العراق، والحوثيين في اليمن، أي أن لها

نفوذ في العراق وسوريا ولبنان وفلسطين واليمن، وهي أيضا التي تدعم قوى سنية مقاومة لإسرائيل مثل حماس والجهاد الفلسطيني وقوى شيعية مقاومة لإسرائيل مثل حزب الله.

وإذا جئنا إلى دعمها لحماس والجهاد الفلسطيني، فهو في الشكل دعم لكل من يقاوم إسرائيل، ولكنه يحقق لها عدم عزلتها عن المحيط السني، وحماس نفسها وكذا الجهاد يعترفون بالدعم الإيراني الواسع لهما، وعلاقات حماس بإيران جيدة جدا، وكذا الجهاد علاقاتها بإيران أكبر وأوسع، وإيران بذلك الدعم تنفي عن نفسها المذهبية الشيعية، وتعطي لنفسها أنها تقاوم الاحتلال الإسرائيلي لدولة عربية سنية.

إيران دولة هشة من الداخل، ففيها أقليات عرقية ودينية وطائفية كبيرة جدا، ففيها الملايين من الأكراد وهم سنة، والعرب وهم شيعة، والفرس ٤٠٪ فقط من إيران، وهناك التركمان «شيعة» والآذاريين والبلوش، وهناك أديان مثل اليهودية وعبدة النار «المجوس»، أي أن فيها فسيفساء عرقية ودينية ومذهبية كبيرة، ولا يوجد في طهران مثلا مسجد سني واحد، ولذلك هناك اضطهاد للأكراد والعرب والسنة، وصحيح أنها حققت تقدما عسكريا كبيرا جدا، وصنعت طرادات وسفن وزوارق وطائرات بدون طيار ودبابات، ولكن كل هذه لن يشفع لها فيما يخطط لها من أمريكا، التي تستطيع أن تضربها في الوقت المناسب، لأن القوة

العسكرية الإيرانية سمحت بها أمريكا لتستنزف الطاقات الإيرانية بعد الثورة على غرار محمد على وعبدالناصر وصدام حسين، ولكي تحقق نوع من الرعب لدول الخليج، لكي تشتري السلاح من أمريكا وصحيح أن تفكيك إيران أو ضربها سيكون بعد نجاح أمريكا في تفكيك السعودية والعراق وسوريا ولبنان، وبديهي أن العوامل الداخلية في إيران تسمح بهذا، فأكراد إيران سيكونون جزء من الدولة الكردية التي تمتد من إيران إلى العراق إلى تركيا إلى سوريا، وإيران في رأيي تحاول امتلاك أوراق في المنطقة، وحققت هذا عن طريق النفوذ في العراق وسوريا ولبنان واليمن، وهي تريد أن تصل إلى نوع من اقتسام كعكة المنطقة مع إسرائيل، بحيث تصبح وكيلا لأمريكا في المنطقة، في مقابل الحصول على نصيب جيد من الكعكة، ويوما ما قال رئيس البرلمان الإيراني السابق على لاريجاني: إن إيران مستعدة للتفاهم مع أمريكا في المنطقة مقابل نصيب معقول في الثروات والنفوذ، وليس في مقابل مصاصة كما قال على لاريجاني.

إيران إذن تستهدف استخدام نفوذها في العراق وسوريا ولبنان وفلسطين والبحرين في أن تستولي بشكل أو بآخر على المنطقة الشرقية في السعودية، وربما تسمح لها أمريكا بذلك، ولكنها في النهاية حسب الخرائط المتوقعة للمنطقة، سيتم تفكيكها تماما، وهي قابلة للتفكيك، لوجود فسيفساء عرقي وديني ومذهبي في داخلها.

إيران الآن تدعم نظام بشار الأسد، وهي في تحالف استراتيجي مع روسيا، ومع ذلك فإن لها علاقات متميزة مع تركيا ولها أيضا علاقات مع أمريكا، وهذه هي إيران التي لا تضع بيضها كله في سلة واحدة، والتي تقسم الأدوار على أجهزتها ومراكزها، فالمرشد له علاقات وسياسات، وكذا الحكومة ورئيس الجمهورية، ثم الحرس الثوري، والمخابرات الإيرانية، ورجال الدين في قم، ويمكنك أن تجد تعارضا مقصودا في السياسات والنفوذ بين الأجهزة الإيرانية، ولكن هذا نوع من تقسيم الأدوار.

إيران تدعم كل أصناف القوي الشيعية في العراق، وربما تدعم أطرافا سنية داخل العراق أيضا وكذلك أطرافا كردية، وهي في العراق نجحت في وقف زحف داعش إلى بغداد عام ٢٠١٤، وحققت بذلك هدف طبيعي هو التصدي لخطر داعش، ولكنها شكلت ميليشيا الحشد الشعبي، الذي تم تشكيله وتسليحه على حساب الميزانية الحكومية للعراق، وهذا الحشد يمكن أن يستخدم حاليا أو مستقبلا في الدفاع عن بشار الأسد، أو الهجوم على السعودية، ونلاحظ العراق تتحول شيئا فشيئا إلى مستعمرة إيرانية، فالحكومة والأحزاب الشيعية، هي بالكامل في جيب إيران، حتى لو تعارضت هذه القوي مع بعضها على أساس أن هذا يتبع المرشد، وذلك يتبع الحكومة الإيرانية، والآخر يتبع الحرس الثوري والرابع يتبع المخابرات الإيرانية.. إلخ، وكذا هناك قوى سنية تعمل لصالح إيران، وكل هذا من

أجل امتلاك أوراق لاقتسام الكعكة مع أمريكا. وفي معركة الموصل ضد داعش مثلا، نجد أن الجيش العراقي والشرطة العراقية وجيش الأكراد «البشمرجة» تقاتل في تلك المعركة وتتكبد الخسائر، وكذلك الحشد الشعبي، الذي يقف غرب الموصل لكي يمنع هروب الدواعش بسلاحهم إلى سوريا، وكذلك لكي يوجههم إلى حيث يريد، أو إلى حيث يريد الأمريكان أي إلى السعودية أو الأردن، ثم إثارة الخلافات مع تركيا بدعوى أن لها قواتًا في العراق بغير رضا الحكومة، ويمكن بالتالي جر الجيش التركي إلى المستنقع العراقي واستنزافه من ثم، وهكذا فإن إيران تلعب أوراقها بذكاء في العراق، وإذا تم تقسيم العراق يكون لها نصيب الأسد عن طريق الدول الشيعية المرتقبة والتي تمتلك آبار البترول وأغلبية السكان، مع دولة سنية ضعيفة بلا موارد ولا منافذ بحرية، ودولة كردية ستكون جزء من الدولة الكردية الكبري التي تضم أكراد إيران والعراق وتركيا وسوريا.

وفي سوريا فإن إيران تدعم النظام السوري، وتنسق مع روسيا وأحيانا مع تركيا، وترى إيران ومعها روسيا أن المحافظة على نظام بشار الأسد أمر حيوي لأمن المنطقة والعالم، وأن المعركة في سوريا هي مع الإرهاب، وإذا كانت إيران تنسق مع أمريكا في العراق، فإنها تعارض أمريكا في سوريا.

والمعادلات السورية معقدة جدا، فالنظام قد تماسك شيئا ما، ونجح في تحويل الثورة الشعبية في سوريا إلى تمرد مسلح وإرهاب، والمعارضة

السورية التي أصبحت مسلحة بالكامل تضم مئات الجماعات والمنظمات منها ما هو تابع لداعش ومنها من هو تابع للقاعدة، ومنها ما هو سلفي جهادي، ومنها ما هو إخواني، منها ما هو تابع للسعودية، ومنها ما هو تابع لتركيا، ومنها ما هو تابع لقطر، ولكن الخطأ الرئيسي لهذه المعارضة أنها تخدم المشروع الأمريكي، وأمريكا ببساطة لا تريد إسقاط نظام بشار الأسد، ولو أرادت لكان ذلك قد تم منذ ثلاث سنوات، أما الآن فأصبح الأمر صعبا جدا، بعد أن تدخلت إيران وروسيا وحزب الله والأحزاب الشيعية العراقية والأفغانية وغيرها، أمريكا لا تريد إلا استمرار الحرب وهدم سوريا تماما والقضاء على وجودها، وتمزيقها إلى دولة علوية، وأخرى كردية في الشمال، ثم عدد من الدول السنية التي تتقاتل مع بعضها، فكل من داعش والنصرة وأحرار الشام وجيش الإسلام، وجماعة نور الدين زكي، وجماعة استقم كما أمرت ومئات المنظمات الأخرى، سيكون لكل واحدة منها دولة سنية تتصارع مع باقي الدول السنية، وهكذا لن تهدأ الحرب أبدا في سوريا، خدمة لإسرائيل، وتركيا ستأخذ بعض مناطق الشمال خوفا من حزب العمال الكردي وأتباعه في سوريا، وخوفا من داعش أيضا، ولكن هذا قد يجرها إلى المستنقع السوري.

هل يمكن أن تستمر الحرب عدة سنوات أخرى، هذا ما هو متوقع فالنظام استطاع تأمين الساحل والعاصمة دمشق وأجزاء من حلب،

وحمص وحماة، وداعش تعيش في الرقة ودير الزور، وجبهة النصرة في غرب حلب وأدلب وجسر الثغور، وجماعات أخرى تحتل بعض المناطق، وهكذا فالقتل والتدمير والخراب هو العنوان.

ولبنان بدورها معرضة للحرب الأهلية والتقسيم على أساس طائفي، حتى لو زعم الفرقاء فيها أنهم عاقلون ولن ينجروا إلى الحرب الأهلية، وعلينا أن ندرك أن لبنان في حقيقة الأمر خاضعة لحزب الله ومن ثم النفوذ الإيراني، وأن حزب الله أقوى من الجيش اللبناني، وهناك قطاع من المسيحيين في لبنان متحالف مع حزب الله، ولا يستطيع مواجهة حزب الله في لبنان إلا السلفية الجهادية، وليس سعد الحريري وتيار المستقبل الذي لا يملك ميليشيات جادة وقادرة، وإلي إشعار آخر فإن حزب الله يفرض إرادته، حزب الله ذهب للقتال في سوريا بدون إذن الدولة، وهو يقول أنه يحمي المسلمين سنة وشيعة ويحمي المسيحيين والدروز من خطر التكفيريين، ولكن الحقيقة أنه ذهب إلى لبنان ليحمي بشار الأسد كجزء من الهيمنة الإيرانية على المنطقة، وليحمي نفسه، لأنه لو سقط بشار الأسد، سيتم تصفية حزب الله وتدميره تدميرا.

نعم حزب الله يسيطر الآن على لبنان، وهو ليس القوة الأكبر فيها، بل ربما هو القوة الوحيدة، وقد استطاع أن يفرض مرشحه للرئاسة «ميشيل عون» على جميع الفرقاء، بمعنى أن النفوذ الإيراني الآن أقوى في لبنان من

النفوذ السعودي، والفرنسي والأمريكي، وهل اسم أي رئيس لبناني يعبر عن النفوذ الحقيقي الموجود في لبنان، فعندما كانت الهيمنة لإسرائيل كان بشير الجميل، وعندما كانت الهيمنة لسوريا كان إميل لحود.. إلخ.

وقد وصل الأمر إلى حد أن سعد الحريري نفسه قد دعم ميشيل عون، لأنه وجد ألا مفر من ذلك، وهو غير قادر على الحرب الأهلية، وكذلك يريد أن ينقذ نفسه وتواجده، وأنه إن لم يفعل ذلك سيخرج هو شخصيا من المعادلة، ويظهر زعيم سني آخر، وقد اشترط أن يصبح هو رئيسا للوزراء وقد قبل بذلك حزب الله.

ولكن الأمور لا تسير باتجاه واحد فميشيل عون نفسه يمكن أن يقلل تحالفه مع الوقت ويزيد اقترابا من سعد الحريري، أو تحدث تطورات إقليمية ليست في الحسبان، وكل الحسابات مفتوحة في لبنان.

***

تركيا إلى أين

هل تتفكك تركيا؟!

إذا كانت تركيا هي إحدى الدول الإسلامية، وشعبها مسلم سني مع وجود أقليات كردية وعلوية، وصراع بين الإسلاميين والعلمانيين، فإن مستقبل تركيا يهمنا، وهي أيضا مركز دولة الخلافة التي دافعت عن الإسلام طويلا أمام التعصب الصليبي الأوروبي، وأيا كان الرأي في الأخطاء والخطايا الفادحة التي ارتكبتها الدولة العثمانية، فإنها تظل شامخة في الدفاع عن أمة الإسلام.

وإذا قلنا إن تركيا جمهورية علمانية حتى الآن، وأنه منذ سقوط الخلافة العثمانية رسميا عام ١٩٢٤، وعمليا قبلها بسنوات، وأنها تطورت من مركز للخلافة إلى جمهورية قادها أتاتورك، وحقق لها انتصارات سمحت باستقلالها، إلا أنه قادها إلى القطيعة مع الثقافة الإسلامية وألغى استخدام الحروف العربية في كتابة اللغة التركية، واستخدم بدلا منها الحروف اللاتينية، وسعى لجعلها أوروبية الثقافة، إلا أن أوروبا رفضت بعناد حتى الآن اعتبار تركيا دولة أوروبية لأن شعبها مسلم وأن أوروبا

هي نادي مسيحي.

والتطورات في جمهورية تركيا تدور حول الجيش والقضاء والأحزاب العلمانية والنخبة المتقربة، وشعب لا يزال متمسك بالإسلام كدين وكحضارة وكثقافة.

وكانت محاولات استعادة هوية تركيا جزئيا، هي السمة الرئيسية للصراعات والانقلابات العسكرية مع الأخذ في الاعتبار وجود أقلية كردية متمردة تريد الاستقلال وعدد كبير من العلويين - بالملايين - يسيطرون إلى حد ما على الجيش التركي، وقوى علمانية فاعلة.

كان هناك عدنان مندريس الذي أعاد استخدام اللغة العربية في رفع الأذان، وكان هناك سليمان ديميريل الذي حاول تخفيف الغلو العلماني.

وفي المقابل كان هناك سعيد النورسي، الذي رأى أن الظرف التاريخي يستدعي الدفاع الاستراتيجي، بمعني أنه ظهر في وقت لا يسمح إلا بالدفاع عن ثوابت الأمة، فألف ونشر كتبا ورسائل وكون جماعة بهدف التأكيد على وجود الله تعالى عن طريق التأمل في الكون والحياة، وعلى صحة نبوة سيدنا محمد ﷺ، وصحة العقائد الإسلامية، دون صدام مع النظام، وكان هذا مهما جدا، ولا يعني هذا انصرافه عن السياسة، فقد مارسها بالحد الأدني، الذي يجعله يركز على أهدافه الأساسية في تلك الفترة، إثبات وجود الله تعالي بالأدلة العقلية، وإثبات صحة نبوة محمد

ﷺ بنفس الطريقة وكذا الدعوة إلى مكارم الأخلاق والتحلي بالمبادئ الإسلامية، وتطورت حركته فيما بعد إلى ما يسمى بحركة الخدمة، التي تقوم بإنشاء المستشفيات والمدارس الدينية والعلمية والانخراط في أجهزة الدولة، والمشاركة بشكل أو آخر في السياسة، وبديهي أننا لا نناقش هنا جدوى ذلك أو صحته بل نرصد فقط.

ومن البديهي أيضا أن محاولات علمنة تركيا ستفشل حتما ولذا فمع كل الجهود السياسية والثقافية والاقتصادية والانخراط في حلف شمال الأطلنطي «الناتو» عسكريا، إلا أن الشعب لا يزال متمسك بإسلامه، فكما قلنا كان هناك النورسي والنورسيين، كما كان هناك النقشبندية، وكان هناك فيما بعد الأحزاب ذات الميول الإسلامية، وظهر نجم الدين أربكان، ثم عبدالله جول ثم رجب طيب أردوغان، مع ملاحظة أن تلك الحركة ارتضت من البداية المرجعية الديمقراطية ومحاولة دخول النادي الأوروبي، والرأسمالية كنظام اقتصادي، مع بعض المظاهر الإسلامية، أي استخدام العلمانية ولكن بعد إلباسها قشرة إسلامية لا قيمة لها، أي أن جوهر هذه الأحزاب علماني، ويجب أن نقول هنا إن الاتجاه إلى التخلي عن الثوابت ومن ثم تبرير النموذج الغربي قد زاده من نجم الدين أربكان الذي كان أقل قبولا للعلمانية إلى رجب طيب أردوغان الذي قبل كل شروط العلمانية وسلم بها، بدعوى الواقعية، وفي النهاية فإنني أري

أن النموذج التركي، هو محاولة علمانية لتفريغ المشروع الإسلامي من محتواه، فبما أن التغريب والتتريك والثقافة الغربية فشلت لدي الشعب التركي، فيجب استخدام الإسلاميين في تحريرها وتبريرها ومنحها قبلة الحياة، وهذا أخبث ما يمكن وصفه من مؤامرات الغرب وأمريكا والعلمانيين، وفي هذا الصدد، فالشيء بالشيء يذكر، فإن الربيع العربي مثلا كان في النهاية غزوة صليبية كاملة، يتم استخدام الإسلاميين فيها لمد حياة العلمانية والرأسمالية والتغريب وقبول الديمقراطية والنموذج الغربي للحكم، بل إنني أكاد أن أقول إن الرأسمالية التي استخدمت كل الوسائل من أجل استمرارها من استعمار ونهب وحروب وقمع، لم تجد أمامها إلا استخدام الإسلاميين لمنع موتها وإعطائها مزيدا من الحياة، وذلك عن طريق تبريرها إسلاميا والقبول بها أي رأسمالية بعمامة مثلا، وهذه هي تجليات الحرب الصليبية في صورتها الرأسمالية والديمقراطية، والغريب أن بعض الإسلاميين وصل به الحال الآن إلى تبرير الرأسمالية والدفاع عن أمريكا والعلاقات مع إسرائيل «أردوغان نموذجا» والتخلي عن الثوابت واحدا بعد الآخر «الغنوشي نموذجا».

إذن فقد استخدم النظام الدولي الأحادي القطبية بعد سقوط الاتحاد السوفيتي، نموذج الإسلام الديمقراطي أو الإسلام الليبرالي أو الإسلام الأمريكي كما يصفه بعض المفكرين الإسلاميين في تحقيق الهدف من القضاء

على المرجعية الإسلامية، وتفسيرها تفسيرا مزيفا، لأنهم وجدوا أن ذلك يطيل عمر الرأسمالية ويطيل عمر هيمنتهم على العالم، وأنهم كانوا قد أدركوا استحالة استئصال الفكرة الإسلامية التي كان من الممكن أن تتطور لحركة مقاومة ضد أمريكا وإسرائيل والرأسمالية وتصبح بديلا حضاريا للعالم.

خطط الغرب لاستخدام الإسلاميين في نزع جوهر الفكرة الإسلامية المعاصرة، وجعلها علمانية بغطاء أو قشرة إسلامية.

وكان الطيب أردوغان هو النموذج الأمثل لذلك وقد نالت مجلة الشاهد البريطانية - نقلا عن محمد مبروك - كتاب إذا تقول لا للنموذج التركي والتونسي ٢٠١٢.

قالت مجلة الشاهد البريطانية تعليقا على اللقاءات الحميمة بين بوش الابن وأردوغان عام ٢٠٠٤: «إن الصفقة التي تطبخ الآن تسعى إلى جعل الإسلام التركي مفرغا من ثوابت الدين».

ويعلق محمد إبراهيم مبروك في نفس الكتاب قائلا :«إن الخطة التي تطبخ الآن هي أن يكون النموذج التركي هو النموذج الرائد لكل ثورات الربيع العربي، وأن أردوغان عندما طاف بهذه البلاد بعد ثوراتها مروجا لهذا النموذج التركي الخالي من ثوابت الدين، كان يقوم بدور المقاول من الباطن الذى يحصد ثمار تلك الثورات لصالح الذئب الأمريكي».

وبديهي أن التفريق بين أربكان وأردوغان مهم هنا، فأربكان كان أكثر

تمسكا بالثوابت، ولكن النسق الفكري واحد، أي أن التنازل عن ثوابت الإسلام مقابل الاندماج في المنهج الغربي والرأسمالية والديمقراطية مع تبريرات إسلامية، وأن هذا النسق الفكري التنازلي أو التلفيقي أو التوفيقي أو المنبطح أمام أمريكا ليس خاصا بأردوغان أو أربكان بل بكل الإسلاميين الذين ساروا بدرجات متفاوتة مع هذا النسق.

وبالطبع فإن البديل الإسلامي الصحيح هو رفض ذلك النسق والتمسك بالجهاد والكفاح ضد أمريكا وإسرائيل والرأسمالية وإذا كانت الحركة الإسلامية تريد أن تخرج من هذا العار والدنس فعليها أن تسحب اعترافها بالولايات المتحدة وإسرائيل فهما دولتان قامتا على إبادة شعب أصلي آخر، وكذلك تبني الاشتراكية الإسلامية، ليست الماركسية ولا الاشتراكية الأوروبية، وأن تتبنى الإسلام أيديولوجية الفقراء والمستضعفين في العالم.

عودة إلى النموذج «الإسلام الأمريكي»، يقول الكاتب السياسي التركي ناصوحي جورجنور نقلا عن ياسر أحمد حسن تركيا البحث عن المستقبل «إن تشكيل حزب العدالة والتنمية تم في إطار توافقات بين الجيش التركي والإدارة الأمريكية وبريطانيا وإسرائيل».

«وأنـه عندما حقق حزب العدالة والتنمية انتصاره الكبير في الانتخابات البرلمانية عام ٢٠٠٢ استقبلت واشنطن الحدث التاريخي

بترحاب كبير، وأبدي دبلوماسيوها في أنقرة تفاؤلا كبيرا بهذه النتائج ونظر إلى الحزب الجديد كحل وسط بين الإسلام والديمقراطية.

يقول نفس المؤلف «إن اللقاءات والعلاقات الحقيقية بدأت بين أردوغان والسفير الأمريكي الأسبق في أنقرة مورتن إبرام أوينز في الثمانينيات عندما كان أردوغان رئيسا لفرع الرفاة في منطقة «أوغلو» في اسطنبول حيث نقل له رسائل إيجابية من واشنطن، وكانت الزيارات تستغرق عدة ساعات من خلال مترجم لعدم إجادة أردوغان أية لغة أخرى غير التركية وحسب الكاتب فإن جوهر الرسائل التي تلقاها أردوغان هو أنت مهم بالنسبة إلى مستقبل تركيا في الأعوام المقبلة».

***

تركيا ذاهبة إلى التفكيك، هذه رغبة أمريكا والغرب وروسيا وحتى إيران، وإذا كان المطلوب من تجربة الإسلاميين في تركيا هو الخضوع للمنظومة الفكرية والسياسية للغرب، وإنهاء الفكرة الإسلامية لتعود عن طريق القبول بالليبرالية والديمقراطية والرأسمالية والثقافة الغربية عموما، أي ضرب النموذج الإسلامي استراتيجيا عن طريق الإسلاميين أنفسهم، فإنه إلى جانب ذلك هناك أهداف جزئية أخري، فالعلمانية التركية وبخاصة القومية والوطنية نفسها لم تكن لتجرؤ على القبول بتقسيم تركيا، إذن فلا يمكن تفكيك تركيا وتقسيمها إلا عن طريق نظام

قادر على تمرير ذلك، وله شعبية وجماهيرية قادرة على استيعاب الصدمة، وهذا ما حدث في السودان مثلا، فكل الحكومات السودانية على اختلاف مشاربها لم تجرؤ على القبول بانفصال الجنوب عن الشمال، ولم يتم قبول ذلك إلا على يد الإسلاميين «نظام عمر حسن البشير تحديدا»، الذي وافق على التقسيم ونفذه.

وعلينا هنا أن نرجع إلى بعض الحقائق البديهية التي ظهرت لنا جميعا جلية واضحة، منها أن الغرب لا يريد لنا النهضة على الأساس الإسلامي ولا على الأساس العلماني، وبما أن أردوغان نجح في تحقيق نهضة اقتصادية في تركيا، رغم أنه ورطها في ديون داخلية وخارجية تزيد على ٦٠٠ مليار دولار، فإن ذلك غير مسموح به، فمن الممكن أن تتحول هذه النهضة إلى قوة علمية وثقافية لصالح الشعب المسلم في تركيا وهذا مرفوض غربيا، إذن فلابد من إضعاف هذا الشعب، وعلينا أن نسترجع كل محاولات النهضة في الدول العربية والإسلامية، فالغرب - فرنسا تحديدا - دعم محمد على ولما أدى دوره في إضعاف الخلافة العثمانية، وبدا أنه يمكن أن يقيم إمبراطورية إسلامية قوية شابة، تم ضربه في ١٨٤٠، حيث تكالبت الدول الأوروبية عليه بما فيها فرنسا ذاتها.

نفس الأمر حدث مع كل من الخديو إسماعيل وعبدالناصر وصدام حسين، وسيحدث نفس الشيء مع إيران قريبا أو بعيدا، الغرب لا يطيق النهضة

للشعوب الإسلامية على الأساس الإسلامي أو غير الأساس الإسلامي.

هذا ما حدث وسوف يحدث مع أردوغان، فجاء الانقلاب العسكري عام ٢٠١٦ على يد أمريكا، وتم إجهاضه أيضا على يد أمريكا، وكانت كل من روسيا وإيران قد فهمتا أنه انقلاب أمريكي فرفضتاه مباشرة، قبل أن تتباطأ أوروبا في رفض الانقلاب، وأرادت أمريكا أن تحقق عدد من الأهداف من السماح بالانقلاب ثم إفشال الانقلاب على النحو التالي:

- إضعاف الجيش التركي والإساءة إليه بحيث لا يصبح قادر على مواجهة التقسيم.

- تسريب أخبار معينة عن وجود علاقة للنورسيين، فتح الله كولن، بالانقلاب، ومن ثم تتوجه الضربات لهؤلاء النورسيين أتباع فتح الله كولن، فيتم إلغاء إنجازات هؤلاء في المستشفيات والمدارس، وتنظيف المؤسسات التركية من أتباع فتح الله كولن، لأن هؤلاء يركزون على الجانب الاجتماعي ويندسون في أجهزة الدولة مما يصعب مهمة واشنطن في التحكم في السياسة التركية، أي استخدام الإسلاميين «أردوغان» في ضرب الإسلاميين فتح الله كولن، فيضعف الاثنان معا.

- توجيه إهانة للجيش التركي على يد أتباع أردوغان، وهو ما يمكن استثماره فيما بعد في إنهاء حكم أردوغان، بعد أن يكون أدى دوره ولم يعد له أهمية لهم، فلا يتركونه لينهض بالشعب التركي.

- الضغط على أردوغان بمسألة حقوق الإنسان وغيرها، لأنه سوف يعلن الطوارئ ويمارس القمع بعد الانقلاب.

***

وعلينا أن ندرك هنا أن أردوغان المتقلب دائما بحيث يتخذ الموقف وعكسه ويقول الكلام وعكسه، سوف يقع في أخطاء فادحة في الوقت المناسب لهم، فيتم استخدامها في تمرير ما تريده واشنطن منه.

أردوغان مثلا كان صديق شخصي وسياسي لبشار الأسد وكان يقوم مع أسرته وأسرة بشار وأسرة تميم حاكم قطر برحلات وقضاء عطلات مع بعضهم البعض في سوريا أو تركيا أو غيرها، وكان هناك تحالف سياسي بين قطر وسوريا وتركيا، وساعتها كان بشار بالطبع ديكتاتورا وكان أبوه حافظ الأسد أيضا، وهو نفسه جاء عن طريق التوريث.

ولكن لماذا دفعت أمريكا أو رضت عن سلوك أردوغان بعد ذلك في معارضة بشار وتأييد الثورة عليه، ثم تسليح معارضيه، ثم السماح بدخول عدد كبير من العناصر الإسلامية من كل أنحاء العالم إلى سوريا؟، لأن ذلك يورط تركيا أولا في سوريا، ويؤدي إلى ظهور المسألة الكردية في شمال سوريا وهي لازمة لانفصال أكراد تركيا، ومن ثم المزيد من تورط أردوغان في الحرب على أكراد سوريا، ثم الحرب على داعش، وكذلك إضعاف الجيش السوري، أو حتى تفكيك سوريا ذاتها، وبما أن

الإدارة الأمريكية كانت تعرف أردوغان منذ عشرات السنين، وقامت بدراسة شخصيته جيدا، فإن التلويح له بزعامة المنطقة بعد الربيع العربي، كانت كفيلة بإقناعه بالانقلاب على صديقه بشار، ولكن الذي حدث أن الشعب السوري دفع ثمنا باهظا جدا لهذا كله، موت مئات الألوف وتهجير الملايين وتهديم سوريا تهديما شديدا، ومع ذلك ظل بشار في السلطة، وأكثر من هذا كانت روسيا وإيران وحزب الله على الخط.

فإيران تسعى إلى إمبراطوريتها الشيعية المعادية لمصالح الأمة بالضرورة وحزب الله لا يسعه إلا ذلك نظرا لمذهبيته، ولأنه أيضا سيتم تصفيته بأن سقوط بشار، وروسيا تحلم بالوصول إلى المياه الدافئة - حلم الملكة كاثرين - وأمريكا تضعف باستمرار وتفشل باستمرار، وبما أن أمريكا لن تدفع ثمنا من عندها، فإن الذي سيدفع ثمن الفشل الأمريكي هو الشعب السوري، ثم تركيا التي سينهال عليها اللاجئين، ثم تصبح عرضة لعمليات إرهابية مستمرة من حزب العمال الكردي، ومن داعش أيضا، ثم تتورط مع روسيا في إسقاط طائرة، ثم تصالح روسيا وتقدم لها فروض الطاعة، ثم تقيم علاقات حميمة مع إسرائيل ثم تتورط في دخول جيشها إلى سوريا، وهو مستنقع كبير جدا، لأن هناك عشرات بل مئات الجماعات المسلحة المتعارضة المبادئ والمصالح والأفكار، ثم ستبحث عن الرضا الإيراني والسوري والروسي في دخول شمال سوريا، ثم تصطدم بهم، ثم

تبحث عن دور في الموصل، وتصطدم في ذلك بفلوجة العراق وبإيران من خلفها وبروسيا، ثم تنهار علاقاتها المتميزة بإيران على قاعدة الخلاف السني الشيعي، الذي لابد من إظهاره لإرضاء الخليج العربي، ثم تصطدم بروسيا في سوريا في النهاية، حتى لو كانت قد حصلت منها على موافقة على دخول سوريا، وفي النهاية تنجر المنطقة إلى حرب عالمية مثلا فتضرب روسيا تركيا بقنابل نووية بدعوي وجود قاعدة أمريكية فيها، وكذا تضرب قطر لنفس السبب وتضرب أمريكا إيران بقنابل نووية كذلك، وكذا تضرب كوريا الشمالية، ويمكن أن تستمر الحرب على حساب أوروبا والشرق الأوسط، أو تتوقف وتسوي جميع المسائل، وتكون تركيا هي التي دفعت ثمنا باهظا، وحتى إذا كان هذا السيناريو لا يزال بعيد، فإن تفكيك تركيا سيكون هو المحصلة المتوسطة، لأن بعد إخراج داعش من الموصل لابد أن تذهب العراق إلى التفكيك أو الحرب سنة شيعة عرب كرد، أو كلاهما معا، وكذلك الأمر بالنسبة لأكراد تركيا وبعدهما إيران والسعودية والخليج، وربما أو نتمني أن تخرج مصر من هذه المعارك بدون خسائر كبيرة، فهي حتى الآن لم تتورط لا في اليمن ولا في سوريا ولا في غيرهما وفي النهاية فإن أردوغان يتم استخدامه لتحقيق أكثر من هدف، وبما أننا لا نزال نثق في أنه ليس عميلا سيئ النية، بل براجماتيا يحاول خداع الجميع، فنرجو من الله أن يفيق ويواجه أمريكا وإسرائيل والرأسمالية، ويعود إلى المفهوم الإسلامي المقاتل والمواجه والمقاوم للاستكبار والرأسمالية وأنصاف الحلول.

مفاهيم ومغالطات

الاشتراكية كلمة عربية، لها كل الاشتقاقات من فعل وفاعل ومفعول وغيرها ومصدرها شرك، بعكس كلمة الديمقراطية التي لا أصل عربي لها فهي كلمة يونانية، ولا علاقة لها بالثقافة العربية إطلاقا، هذا لا يعني أن الثقافة العربية لا تعرف الحرية أو تداول السلطة، أو حق الناس في اختيار ممثليهم.. إلخ. وهي أيضا بالإضافة إلى ما تعنيه من معان أو آليات يمكن الاستفادة بها، إلا أنها تعني أيضا حرية الشذوذ الجنسي والأخلاقي والسياسي، وتعني أيضا حرية السوق والرأسمالية حتى لو كانت رأسمالية اجتماعية، ومن الغريب أن الإسلاميين يقبلون بكلمة الديمقراطية ويبررونها، ويرفضون كلمة الاشتراكية ولا يطيقونها!!

الديمقراطية هي النظام الغربي الذي فصل بين السادة والعبيد في أثينا وأسقطت حقوق هؤلاء العبيد، وكذلك فصلت بين الملاك والمعدمين «بلا أملاك»، فأعطت الملاك حقوق الانتخاب وحرمت المعدمين منه، إنها حرية السادة والأغنياء، وصحيح أنها تطورت في العصور الحديثة فأعطت الجميع حرية الانتخاب بعد تحريمه العبودية، وبعد الثورات

الاجتماعية التي حاولت أن تساوي بين الملاك والرأسماليين وأصحاب الأعمال والعمال والعاطلين وهذا جيد، لكنها لا تزال في جوهرها أسيرة كبار رجال المال، حيث يلعب المال دورا مهما في تحديد الفائز في الانتخابات، فضلا عن وجود مؤسسات حاكمة هي التي تحدد من الفائز في النهاية مثل المجمع الصناعي العسكري في الولايات المتحدة الأمريكية، وكذلك فإن من يملك المال يملك عن طريق وسائل الإعلام التي تلعب الدور الأكبر في تلميع هذا، وتهميش ذلك، وكذلك إثارة الفضائح وتوجيه الرأي العام والتحكم من ثم في نتائج الانتخابات عن طريق آليات معقدة وواسعة ومؤثرة جدًا. وهذه كلها أمور أصبح الحديث عنها بديهيا، فالجميع بمن فيهم دعاة الديمقراطية يعترفون بأن الديمقراطية أصبحت لعبة بين الأغنياء وأصحاب وسائل الإعلام، ويبحثون عن طرق لتطوير هذه الوسيلة وإلغاء أو تقليل بعض عيوبها.

وفي كل الأحوال فمنذ أن عرفت البشرية الرأسمالية والديمقراطية من الآليات السياسية الحديثة، فإن الجرائم تحت حكم وسيطرة الديمقراطية والرأسمالية، تتم يوميا وربما عدة مرات في اليوم الواحد، وبديهي أن الديمقراطية والرأسمالية ذات صلة مباشرة بالنسق الفكري والحضاري والقيمي الذى خرجت منه وهي قيم ونسق لا يتفق مع الحضارة الإسلامية، ولا ثوابت الدين الإسلامي العظيم.

هذه الديمقراطية والرأسمالية هي التي أنشأت دولة إسرائيل وهي التي لا تزال تمولها وتؤيدها، فوعد بلفور صدر عن وزير خارجية بريطانيا الديمقراطية الرأسمالية، وكل الدول الديمقراطية اعترفت بإسرائيل وساعدتها، وأمريكا الرأسمالية الديمقراطية هي التي لا تزال تسلح وتمول وتساعد إسرائيل، وتستخدم الفيتو في مجلس الأمن لحمايتها.

وبهذه المناسبة يجب أن نرصد أن هناك داخل المجتمعات العربية والإسلامية أفراد وجماعات وقوى، تقول إن هناك أخلاقا أوروبية جيدة بعكس أخلاقنا، ويروجون للانبهار بالنموذج الغربي، ويكدسون الأدلة على تقدم تلك المجتمعات، وأن علينا أن نحذو حذوهم وغيرها من الكلام الذي تصطدم به في الصحف ووسائل الإعلام والقنوات الفضائية، وفي المقاهي، وفي الكتب المؤلفة، وفي الحوار بين أهل البيت الواحد.

وهذه إحدي العيوب الخطيرة التي تعاني منها ثقافتنا المعارصة، فهذا الانبهار بالسلوك الغربي هو مقدمة لهزيمتنا الحضارية الشاملة، صحيح أن هناك انحطاطا أخلاقيا لدي شعوبنا وهناك أوضاع سيئة في مجال السياسة والاقتصاد والاجتماع، إلا أن علاج ذلك لا يكون بالانبهار بالنموذج الحضاري الغربي، بل برفضه والتعالي عليه ومواجهته. وصحيح أيضا أن هناك في أفراد الغرب، من يمتلك حسا أخلاقيا راقيا، ويقول الحق ولا يكذب ولا يشهد زورا أبدا، بل ويقف مع القضايا العادلة مثل قضية

فلسطين، إلا أن ذلك حتى ولو كان كبيرا وواسعا، يظل استثناء ويظل هامشيا، لأنه لو كان جوهريا لظهرت نتائجه في الأحزاب والبرلمانات الأوروبية والأمريكية، وفي النهاية فإن الحكم على ظاهرة يكون باتجاه مجراها الرئيسي وليس المجري الفرعي، حتى لو أصبح الفرعي أكبر من الرئيسي، فالمهم هنا أن من يتخذ القرار في الغرب وأمريكا، لا يزال يظلمنا، ويشهد زورا في الأمم المتحدة، ويكذب بل ويقتلنا كثيرا ويقتل أيضا غيرنا ويظلمهم، فالغرب في مجراه الرئيسي ظالم، ولا نقصد هنا بالغرب، الدول الغربية فقط، بل كل من اتخذ الرأسمالية الديمقراطية منهجا كاليابان في الشرق، وهناك أيضا تفاوت في المواقف، فمثلا الصين واليابان أقل سوءا من الولايات المتحدة الأمريكية، وكذلك روسيا أقل سوءا من أمريكا، فروسيا مثلا اضطهدت الشيشان وقتلت في أفغانستان، وهذا سيئ جدا، ولكنها أقل سوءا بكثير جدا من أمريكا التي أنشأت ومولت دولة إسرائيل التي قتلت الملايين من العرب والمسلمين، وهي التي قتلت مليون في العراق ومثلهم في أفغانستان، والآلاف في الصومال والقائمة طويلة جدا، بخصوص الدول العربية والإسلامية، ومختلف أنحاء العالم مسلمين وغير مسلمين.

إذن فالحديث عن الإعجاب بالنموذج الغربي، والذي يتجلي في أقوال البعض انظر إلى الحريات في الغرب، انظر إلى السعادة في السويد، انظر

إلى المستوي الاقتصادي للفرد هناك، فهذا من الأخطاء الثقافية الكبرى، فهؤلاء الذين يتمتعون بالرفاة الاقتصادي، حققوا هذا الرفاة عن طريق نهب الشعوب، ولو كان هذا حدث في الجيل أو الأجيال السابقة، وليس هذا الجيل الغربي، فعلى هؤلاء رد الحقوق لأصحابها، أو على الأقل السماح للمهاجرين بدخول أراضيهم، ومن الغريب مثلا أن اتفاقيات ألجأت النظام الدولي، بفرض مرور السلع، ولا يقبل مرور الإنسان، هل السلع أفضل من الإنسان، وأيضا الأمريكان مثلا، دخلوا الأراضي التي يعيشون فيها عنوة وقتلوا أهلها وأبادوهم، ويرفضون دخول هذه الأراضي لغيرهم إلا حسب المزاج وفي الحدود التي تلائمهم، وهي ليست أرضهم أصلا، ومع ذلك يرفضون دخول غيرهم إليها.

الانبهار بالأخلاق الغربية هي إحدي العيوب الكبرى في ثقافتنا المعاصرة، وعلينا التصدي لها، ويكفي أن نقول إن جريمة إنشاء دولة إسرائيل وتسليحها وتمويلها، وهي التي اغتصبت أرضنا وقتلت شعوبنا، ولا تزال أوروبا الرسمية والغرب الرسمي والشعبي يؤيدها، ولو كان عند هؤلاء أخلاق، لسحبوا اعترافهم بإسرائيل ومنعوا عنها السلاح والمال، بل وحاربوها لإجلائها لأنهم من ارتكب الجريمة أصلا، وما دام هؤلاء لا يفعلون ذلك، فإنهم بلا أخلاق وبلا ضمير.

وفي إطار العيوب والقضايا التي تحيط بثقافتنا المعاصرة، أنك تجد

كثير من الناس، خاصة الإسلاميين منهم، يقول إن ما نحن فيه بسبب المعاصي أو أن الأمة أصبحت منحلة، وصحيح أن المعاصي والانحلال أحد أسباب التدهور، ولكني أقول إن هذه طريقة للتنويم والإخضاع فالحقيقة أن انفساد والتحلل كان في الدولة العباسية أكثر من يومنا هذا آلاف المرات: ولديكم شعراء وكتاب جهروا بالفاحشة مثل أبي نواس، والحديث عن الخمر والنساء بل والغلمان في شوارع بغداد وحواضر المدن العربية في الدولة العباسية، وكذا في الدولة الأموية، وفي الدولة العثمانية أكثر من أن يحصى، وأزعم والله تعالى أعلم أن مستوى الالتزام الشكلي على الأقل بالآداب الإسلامية الآن كثيرا من كل هذه العصور، ومع ذلك، فإن الدول العباسية والأموية والعثمانية كانت تنتصر في الحروب، وتسيطر على العالم كله، لدرجة أن الخليفة العباسي كان يقول للسحابة في السماء، أمطري حيث شئت فسوف يأتيني خراجك.

إذن فعلينا البحث عن الأسباب الحقيقية للهزيمة، وليس إلصاقها بالمعاصي والانحلال، فهناك أسباب أخرى منها غيبة قيم الجهاد والغزو، غيبة قيم الوحدة، الاهتمام بالشكل على حساب المضمون وأسباب أخرى كثيرة لا يمكن مناقشتها في هذه العجالة، وقد ناقشت بعضها في عديد من الكتب والمقالات.

وبهذه المناسبة فإنني أضرب مثلا آخر لمدى الغفلة وعدم التشخيص

الصحيح للمريض، وأرى أن ذلك نوع من استدامة الهزيمة، والسير في الطريق العكسي تماما.

الإسلاميون مثلا، أو بعضهم على الأقل يقولون «الإسلام هو الحل»، فهل غاب الإسلام مثلا ليكون رجوعه هو الحل، مازال الناس مسلمون، ولكن الهدف من هذا الشعار هو تقسيم الأمة، فيصبح الإسلاميون ومن معهم هم المسلمون والآخرون غير مسلمين، وهذه عين ما يريده الأعداء، وهو أيضا اتهام لهذا الجيل من الأمة بأنه كفر، والحقيقة أنه لم يكفر بل تقاعس وكسل وتفرق، فالصحيح أن تقول مثلا النشاط هو الحل، الجهاد هو الحل، الوحدة هي الحل، وأشبه هذا الأمر بمريض ذهب إلى طبيب يشكو من المرض والضعف، فقال له الطبيب البروتين هو الحل، فقال المريض إنني آكل لحما وطيورا ولبنا وبيضا وسمكا، في كل يوم، فكيف يكون هناك نقص في البروتين، كان على الطبيب أن يقول له مثلا بعد فحصه جديا، فيتامين «ب»، هو الحل أو الكالسيوم هو الحل أو غيرها من الأسباب، أما الكلام عن البروتين هنا تشخيص خاطئ جدا، وسوف يزداد المريض مرضا.

وبالطبع سيثور البعض في وجوهنا، قائلا: كيف تقول إن الإسلام ليس هو الحل، وسوف يثور الطبيب في وجه المريض قائلا له: كيف تشكك في قيمة البروتين، أليس البروتين هو الذي يبني الأجسام

والعضلات، ويأخذ يعدد له فوائد البروتين التي تكتب في فائدته هذه مجلدات، مع أن المريض لم يقلل أصلا من قيمة البروتين، ولم يشكك أصلا في الإسلام، ولكنه قال إن الإسلام لم يغب عن الأمة وأن الأمة لم تكفر، وأنه يأكل الكثير من البروتين.

***

عودة إلى الديمقراطية والاشتراكية، هذه الديمقراطية مثلا هي التي أبادت الهنود الحمر - حوالي ٢٠ مليون هندي أحمر - يوم أن كان عدد سكان إنجلترا ٣ ملايين أي حوالي ٧ أضعاف سكان إنجلترا وهي التي استرقت السود بعشرات الملايين أيضا، وهي التي استعمرت معظم دول العالم ونهبت ثرواتها، وهي التي ضربت ناجازاكي وهيروشيما بالقنابل الذرية، وهي التي أنشأت ومولت وسلحت إسرائيل، وهي التي احتلت العراق وأفغانستان وقتلت الملايين ودمرت العراق تدميرا، وهي التي خاضت حربين عالميتين مات فيهما ٥٠ مليون من البشر والجرائم لا تعد ولا تحصى وتحتاج إلى مجلدات.

ولا يعني هذا أننا نرفض الحرية أو حقوق الإنسان أو التعددية السياسية والفكرية.. إلخ.

وبصدد استرقاق السود، ينبغي أن نعترف أن بعض المسلمين، جماعات وأفراد وحكومات وخلفاء قد مارسوا الرق أيضا بدعوى أنه

حلال، وفي الحقيقة فإنه ليس حلالا أبدا، وكان هذا انحرافا عن مقاصد الشريعة فمن اكتفى بالأحكام الفقهية دون أن يعرف مقاصد الشريعة، فليس اجتهاده صحيحا.

والصحيح من وجهة نظري والله تعالى أعلم أن ما حدث من المسلمين على اختلاف العصور في صدد الرق، كان انحرافا عن الإسلام، وقلة وعي بمقاصد الشريعة.

وأرى أن مقاصد الشريعة في موضوع الرق، كانت تتجه إلى إلغائه وإنهائه بالتدريج، فالإسلام منع كل طرق الاسترقاق ما عدا الحرب والأسري، وفي هؤلاء حدد لهم طريقين لا ثالث لهما: ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾، فالقرآن حدد مصير الرقيق رجالا أو نساءً بالإفراج عنهم بالفدية، فإن لم توجد كان المن، بل المن أفضل لأنه مقدم على الفدية.

وإذا كنا نعتبر أن سيدنا محمد ﷺ هو النموذج الأعلى لنا، فإنه كان يأتيه أسرى رجالا ونساءً، ومع ذلك لم نعرف عنه أنه استخدم ملك اليمين مثلا، كما فعل بعد ذلك المسلمون الذين كانوا يحتفظون بالعشرات أو المئات أو الألوف من النساء بدعوى ملك اليمين، وإذا قال البعض أنه لم يمارس ملك اليمين لزهده في النساء، فهذا مردود عليه أنه تزوج تسعة من النساء، وأنجب البنين والبنات، وأنه كان قادرا جدا في موضوع النساء ويقال إنه كان يمتلك قدرة أربعين رجلا، وأيا كان الأمر فتفسير

عزوفه عن تلك الممارسة لا يمكن تفسيرها بالزهد في النساء، بل لها تفسير واحد هو أنه لا يستحب أو يرفض أو يكره هذه الممارسة، فلماذا لم يقلده المسلمون ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾، وهو نفسه رفض أن يعطي فاطمة الزهراء جارية لتعينها في أمور الحياة، وعلمها بدلا من ذلك دعاء أو ذكر.

إذن هو لا يستحبها لنفسه، ولا لبنته، فلماذا لم نقلده؟ لقد انحرف المسلمون في هذه القضية ولا حول ولا قوة إلا بالله، وكذلك فإن الرسول ﷺ قال ما معناه: «**من كان أخوه تحت يده فليطعم مما يأكل ويلبسه مما يلبس**»، وقياسا عليه فليعطه جوادا أو سيارة أو جملا أو ناقة ليركبها مثله، أي أنه جعل الاحتفاظ بالرقيق صعب جدا، بل شبه مستحيل، إذ أنه يكون عبئا على السيد إن كان يريد أن يعطيه حقه، وكذلك فإن كثير من الكفارات هي فك رقبة، وفضل تحرير الرقيق عظيما جدا، إذن مقاصد الشريعة كانت تستهدف إلغاء الرقيق، أما ما حدث فهو انحراف.

الاشتراكية كلمة عربية إذن، وليس لها نظير في أي لغة من لغات العالم، فالشيوعية لا علاقة لها بالاشتراكية العربية الإسلامية، فالشيوعية تقوم على الإلحاد، انظر فصل بعنوان النظام الاقتصادي في الإسلام، وتقوم الشيوعية على المادية الجدلية مرجعيتها وضعية، أما الاشتراكية الإسلامية، فمرجعيتها إلهية، والفروق بين الاثنين أكثر من أن تحصى، ويمكن مثلا أن

يتشابها في جزء أو أكثر، مثل تشابه شجرتين في لون الورق مثلا، ولكن يظل لكل شجرة جذرها الخاص بها وسماتها المنفردة والمختلفة عن غيرها، وهو على طريقة وجود تشابه بين شجرتي الزيتون والزقوم.

وما يسمي بالاجتماعية الأوروبية ليست اشتراكية، ولا تشبه الاشتراكية العربية الإسلامية، والأحزاب الأوروبية الاجتماعية تسمى «social» وترجمت خطأ بالأحزاب الاشتراكية وهي أحزاب اجتماعية وليست اشتراكية، فكلمة الاشتراكية غير موجودة في غير اللغة العربية.

وهكذا فنحن نصمم على استخدام لفظ الاشتراكية، لأنها أولا كلمة عربية، ولأنها ثانيا غير موجودة في أي لغة أخري، ولأنها ثالثا تطبيقا للإسلام ولكلام سيدنا رسول الله ﷺ الذي قال ما معناه «**الناس شركاء في ثلاث: الماء والكلأ والنار**»، أي استخدم إحدى مشتقات المصدر «شرك» الذي جاءت منه كلمة اشتراكية، وهذا الحديث يؤكد ضرورة كلمة مشتقة من المصدر «شرك» تحديدا هذا من حيث الشكل، لأنه استخدم كلمة شركاء، ومضمون الحديث يؤكد مضمون الاشتراكية، فالماء والكلأوالنار أي الزراعة والطاقة والصناعة، وكل شيء تقريبا، فهي كلمة صحيحة شكلا ومضمونا، وقد يقول البعض خاصة الإسلاميين منهم إن كلمة اشتراكية سمعتها سيئة، وهذا صحيح فالأحزاب الاجتماعية مثلا هي مع غيرها أو وحدها من نفذت المدابح

والقمع والاحتلال الفرنسي مثلا للجزائر والعدوان الثلاثي على مصر كان من حكومات اجتماعية، حزب العمل الإسرائيلي، وحزب العمال الإنجليزي، والحزب الاجتماعي الفرنسي، وكذلك فإن الكلمة ارتبطت بالإلحاد أحيانا وبالقمع والاستبداد أحيانا، خاصة أن عبدالناصر استخدمها، ولن نناقش موضوع عبدالناصر فهذا موجود في كتب أخرى من تأليفي ولكن أقول لهؤلاء، لقد أنشأ عبدالناصر إذاعة القرآن الكريم مثلا، فهل نلغيها؟.

وفي الحقيقة فإن الإسلاميين مثلا يحبذون استخدام كلمة العدالة الاجتماعية، وهذا جزء من خلل كبير، لأن هذه الكلمة، كلمة يستخدمها الليبراليون، ويستخدمها الأمريكان لتحقيق نوع من التوازن في المجتمعات، ولا علاقة لها بالاشتراكية العربية الإسلامية التي تعطي كل الناس الحقوق، وليس المنح والعطايا، وقد يقول البعض لماذا لانستخدم كلمة أخري غير الاشتراكية، حتى لا نقع في الخلط، ونقول لهم إنه ليس هناك كلمة تعبر عن مضمون الاقتصاد الإسلامي حتى الآن غير الاشتراكية، وأن التخلي عن كلمة لمجرد أن عبدالناصر أو غيره استخدمها، هو نوع من الهزيمة، لا نقبله للمسلمين المعاصرين، ولا للحركة الإسلامية، ولا للأمة الإسلامية.

وعلينا أن نقرأ في تراثنا العديد من الآثار الذي لن يتحقق بالاشتراكية،

فهناك قاعدة أصولية لم يختلف معها أحد من جمهور العلماء تقول :«إذا جاع المسلمون فلا مال لأحد، وإذا اشتد بالناس البلاء صاروا جميعا في المال سواء».

ويقول ابن الجوزي في مناقب عمر بن الخطاب «إني حريص على ألا أدع حاجة إلا سددتها ما أتسع بعضنا بعضا، فإذا عجزنا أسينا في عيشنا حتى نستوي في الكفاف».

ويقول أمير المؤمنين عمر أيضا «لو استقبلت من أمري ما استدبرت لأخذت فضول أموال الأغنياء، فرددتها على الفقراء».

ويقول أمير المؤمنين على بن أبي طالب «ما متع غني إلا بما حرم منه فقير»، وهو قول يتضمن معان كبري منها ما قاله كارل ماركس نفسه في نظرية فائض القيمة، التي تعني أن أصحاب الأعمال يأخذون فائض قيمة عمل العمال، وبديهي أن مرجعية أمير المؤمنين على بن أبي طالب في هذه النظرية تختلف عن مرجعية كارل ماركس، وإن تشابها في المعنى الواحد فمرجعية على إسلامية ومرجعية كارل ماركس مادية.

وقول أبوذر الغفاري رضي الله عنه: «عجبت لمن لا يجد قوت يومه ولا يخرج على الناس بسيفه» وهو شرعنة للثورة الاجتماعية.

أما سيدنا رسول الله ﷺ فقال:**«طعام الواحد يكفي الاثنين، وطعام الاثنين يكفي الأربعة، وطعام الأربعة يكفي الثمانية»** صحيح البخاري.

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: بينما نحن في سفر مع النبي ﷺ، إذ جاء رجل على راحلة له فجعل يصرف بصره يمينا وشمالا فقال رسول الله ﷺ: «**من كان عنده فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له، من كان له فضل زاد فليعد به على من لا زاد له**». فذكر من أصناف المال ما ذكر حتى رأينا أنه لا حق لأحد منا في فضل صحيح مسلم.

وفي حديث متفق عليه عن ابي موسي الأشعري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الأشعريين إذا أرملوا في الغزو، أو قل طعام عيالهم بالمدينة، جمعوا ما كان عندهم في ثوب واحد ثم اقتسموه بينهم في إناء وا د بالسوية فهم مني وأنا منهم**».

هذه الآثار السابقة عن الرسول ﷺ أو كبار الصحابة تتعلق بالحقوق، وليس الزكاة أو الصدقات أو البر أو التقوى أو التراحم أو التعاطف، وهي تحقق طبعا التعاطف والتراحم والبر والتقوى، ولكنها في إطار آخر تماما، ومن ثم فإن صرفها إلى باب آخر غير باب الحقوق هو مغالطة كبرى، لأن عمر بن الخطاب ﷺ مثلا في عام الرمادة، صادر مخازن الغلال ووزعها على الفقراء دون استئذان أصحابها مثلا، فالأمر مرتبط بالحاكم هنا وبالسلطة لدرجة المصادرة وليس رحمة أو بر الأغنياء.

والقاعدة التي أرى صحتها في هذه المسألة «إنه إذا وجد فقير أو عاطل

في المجتمع، ينبغي مصادرة أموال الأغنياء، حتى لا يبقى فقير أو عاطل أو غير متعلم في المجتمع، فإذا اكتفي المجتمع، فلا بأس من زيادة ثروة البعض، مع العلم هنا أنه لا يمكن أن تزيد الثروة زيادة هائلة، لأن الإسلام حرم الاحتكار والاكتناز وفرض زكاة وصدقات وكفارات، وجعل أعباء اجتماعية وتعبدية على الفرد لا تسمح له بالعمل أكثر من ساعات محدودة في اليوم مثل الصلاة في المسجد، والصوم في رمضان والحج والعمرة، وزيارة الأقارب والأصدقاء، والسعي في قضاء حاجات الناس، وتتبع الجنازات، وتلبية الدعوة في العقيقة وغيرها، وزيارة المريض.

إذن لا وقت يكفي - من وجهة نظري - لأن تكون ملياردیرا فإما أنك لص، أو كان أبوك لصا.

أعرف أن البعض ممن يجترؤون الفهم، أن هناك أغنياء ظهروا في عهد الصحابة، ونقول لهؤلاء لا مانع من الغنى، ولكن إذا جاع المسلمون فلا مال لأحد، وبالتالي فإذا وجد فقير أو عاطل، فلا مال لأحد، وأن أوضاعنا الاقتصادية الحالية تحتم الاشتراكية، وعموما فإذا كان هؤلاء يحتجون بتجربة عبدالرحمن بن عوف، فنقول لهم: إذا أخذتم بالرواية فخذوها كلها، لأن جزء من الرواية أن سيدنا عبدالرحمن بن عوف، الصحابي الجليل، سيدخل الجنة بعد المسلمين بـ٣٠٠ عام، بأعوام مثل أعوامنا، أو بأعوام على حساب إن يوم عند ربك كألف سنة مما يعدون،

أو بأي حساب آخر، فهل لو كانت هذه التجربة مطلوبة ومرغوبة إسلاميا، كان الله سبحانه وتعالى، سيؤخر عبدالرحمن بن عوف ﷺ هذه الفترة حتى يدخله الجنة، ليس حرمانه كل هذا الوقت من الجنة، في الوقت الذي يتمتع فيه آخرون بذلك، هو نوع من التقليل من شأن الغنى الشديد لدى الله، خاصة أن سيدنا رسول الله ﷺ قال: «**اللهم أحيني مسكينا وأمتني مسكينا واحشرني في زمرة المساكين**»، وقد يقول البعض إن هذا التأخير يرجع إلى طول مدة الحساب، لأن الأموال تستغرق وقتا في الحساب، للتعرف كيف اكتسبها وفيما أنفقها، وأقول لهؤلاء وأيا كان السبب فهو دليل على أن هذا ليس نموذجا مثاليا، ثم إن جهاز الكمبيوتر مثلا قادر على حساب هذه الأمور في دقائق، أليست قدرة الله تعالى خالق الكمبيوتر وغير الكمبيوتر كافية لحسابه في ثوان معدودات.

وبهذه المناسبة قابلت أحد الدعاة المشهورين، وقلت له إنك تركب سيارات فارهة جدا، ولديك عدة قصور، فيها أربعة أزواج وكذلك يركب أبناؤك سيارات مماثلة ويسكنون في قصور، وأنت تدعو إلى الاقتداء بالرسول ﷺ في كل شيء، فلماذا لا تقتدي به في الحياة مسكينا مثلا أم أنك تقلده فيما تستحسنه، وتترك ما لا تستحسنه!، فقال إن هذه النعم في يدي وليست في قلبي، فقلت له هذا نوع من الالتفاف على المضمون، وتبرير غير المبرر، فإذا لم تكن في قلبك حقيقة، فلتتركها من يدك أيضا، خاصة

أن من المسلمين من يموت جوعا هنا أو هناك.

من الضروري هنا أن ننبه إلى مسألة غاية في الخطورة، فإذا كنا قد أشرنا في تجربة أربكان وأردوغان والغنوشي وإخوان المغرب وإخوان مصر وغيرهم إلى أن الغرب يريد القبول بالديمقراطية والقيم الغربية، لتفريغ مشروع المقاومة الإسلامية ضد الاستعمار والصهيونية والرأسمالية من مضمونه، وأن ذلك كان لأن المعدة الأمريكية الصهيونية الرأسمالية، قد نجحت في هضم كل ثقافات وحضارات العالم ودمجها في العولمة أو الرأسمالية العالمية، أو القيم الحضارية الغربية، ولم تنجح في هضم المنطقة الإسلامية، والثقافة الإسلامية، الأمر الذي يعني إمكانية ظهور بديل إسلامي اشتراكي مقاوم للاستعمار والرأسمالية وإسرائيل، ومن ثم كان لابد من بحث عن طريقة لاحتواء ذلك الخطر حتى لا يتحول لأيديولوجية للفقراء والمستضعفين ولاهوت تحرير إسلامي، فتم استدراج حركات إسلامية معينة لتحقيق عملية ترويض للواقع والثقافة الإسلامية، فيتم ظهور تفسير للإسلام يوافق على الرأسمالية والديمقراطية، ثم بعد ذلك إسرائيل، ويسمي بعض المفكرين الإسلاميين هذا النموذج بالإسلام الأمريكي، أو الإسلام الليبرالي، وفي الحقيقة فإن تلك الحركات قد وقعت في هذا الخطأ بل الخطيئة ومارست هذا الدور، وبدأت البرامج والكتب والأحاديث والمقالات والخطب

التي يقولها هؤلاء تبرر للرأسمالية وتشيد بالديمقراطية، بل وتدافع عن أمريكا، وتتباهي بالتحالف معها، والحقيقة أنها عمالة لها، وبدأ التراجع عن ثوابت الإسلام، انظر إلى فلسفة الغنوشي العلنية، أو فلسفة أردوغان شبه العلنية، أو فلسفة الإخوان الملتوية تجد كل هذا بطريقة أو بأخرى.

فالبرنامج الرئاسي للدكتور محمد مرسي مثلا جاء فيه: جذب الاستثمارات الأجنبية، وتوسيع مجالاتها، الاعتماد على القطاع الخاص في الصناعات الاستراتيجية.

وكما يقول الأستاذ محمود عبده في كتابه «أزمة الإسلاميين بين الثورة والسياسة» هلا للنشر والتوزيع - القاهرة ٢٠١٣.

«إنه تم تهميش الزراعة في المشروع، وأن حزب النور سار في نفس الاتجاه وإن كان بدرجة أقل، أما حزب البناء والتنمية فقال صراحة مبدأ الحرية الاقتصادية هو المبدأ الأنسب للاقتصاد المصري، وحزب الأصالة السلفي كان أكثر ليبرالية في هذا الصدد وكذا حزب الوسط، وفي الحقيقة فإن الأمر لا يقتصر على الإسلاميين أو الأحزاب الإسلامية، فحتى الأحزاب الناصرية واليسارية فعلت نفس الشيء، ولكن بصيغ مطاطة».

يقول محمود عبده في نفس المرجع: «خطورة هذا النهج الاقتصادي أنه يعيد إنتاج النظام الرأسمالي الغربي ويخلطه ببعض المفاهيم الإسلامية ليخرج لنا كيان مشوها محسوب على الإسلام ولكنه رأسمالي الجوهر».

وباختصار شديد فإن الرأسمالية لكي تستمد المزيد من العمر في حياتها وقد فعلت كل شيء من استعمار ونهب وحروب ولكنها استنفذتها ولم يعد أمامها بقية من عمر وكادت تصل إلى نهايتها المحتومة، أرادت أن تستخدم الغطاء الإسلامي لتحقيق ذلك، فتزيد في عمرها، وتمنع الثقافة الإسلامية والأرضية الإسلامية من إفراز لاهوت تحرير في مواجهة الرأسمالية وتمنع ظهور حركات مقاومة إسلامية ضد الرأسمالية والاستعمار وإسرائيل، وتمنع العالم من تبني تلك الأيديولوجية - بدين أو مجرد أيديولوجية - الإسلامية وتنجح القوى العاطلة أو المظلومة من مسلمين وغير مسلمين من الإطاحة بالرأسمالية.

وفي الحقيقة فإنه لو ظهرت فكرة أن الإسلام أيديولوجية الفقراء، وأنه الجذر الثقافي للثورة على الرأسمالية، لنجحت تلك الثورة، ولو تبني الإسلاميون هذا الأمر، لكان ذلك أفضل دعوة للإسلام في العالم كله.

وبمناسبة الطريقة الصحيحة للدعوة للإسلام في العالم، فإن ذلك يكون بمواجهة الرأسمالية، ويكون بسحب الاعتراف بأمريكا، وتخيل مثلا أن جماعات وأحزاب إسلامية أعلنت سحب الاعتراف بأمريكا - وليس قطع العلاقات فقط معها - ووصل ذلك إلى أسماع العالم في كل مكان، لفهم كل الناس أن الإسلام لا يقبل الظلم حتى لو كان عمره مئات السنين، وأن المسلمون رفضوا الاعتراف بدولة قامت على إبادة

شعب آخر، وهذا يدل على أن دين الإسلام دين صادق يرفض الظلم، وليس كما يصور البعض على أنه دين رق وعبودية وعنصرية أو عنف بسبب تصرفات بعض المحسوبين عليه، أو بسبب الافتراء عليه.

الحل من وجهة نظري يكمن في تبني الحركات الإسلامية لثلاثة أشياء: سحب الاعتراف بأمريكا - سحب الاعتراف بإسرائيل، الاشتراكية.

ونقول للإسلاميين الذين يريدون تطبيق الشريعة، إن الشريعة تحرم الرأسمالية تحريما قاطعا، فجميع الاقتصاديين ودارسي الاقتصاد بل وطلاب الاقتصاد، ومن لهم أية صلة بالاقتصاد وعلومه يعرفون حقيقة علمية اقتصادية تقول «إنه لا رأسمالية بدون بنوك ولا بنوك بدون ربا، أليس الربا حرام وبالتالي الرأسمالية حرام وغير جائزة شرعا، فالرأسمالية بكل أنواعها حرام، الرأسمالية التقليدية والرأسمالية الاجتماعية والرأسمالية الفاسدة، والرأسمالية غير الفاسدة، الرأسمالية في حد ذاتها وأيا كان نوعها مصت دماء العالم ونشرت الحروب وتسببت في الشقاء الإنساني على نطاق واسع.

ويصل البعض من الإسلاميين إلى حد تبرير الرأسمالية واعتمادها وشرعنتها، زاعمين أن مجرد جمع الزكاة ٢,٥٪ سوف يحل المشكلة الاقتصادية، فالزكاة أولا عبادة، وثانيا لا تحل كل مشكلة الفقر والبطالة، وإذا وصل الأمر ببعض الإسلاميين إلى الدعوة إلى إلغاء الضرائب

وجعلها فقط ٥, ٢٪ كزكاة دون النظر لحجم رأس المال، كما قال حزب الأصالة السلفي، فإننا نكون قد وصلنا إلى مستوي من عدم الفهم غير مسبوق، فلم توجد دولة في التاريخ جعلت ضرائبها ٥, ٢٪، وبداهة أن ٥, ٢٪ غير قادرة على حل مشكلة الفقر والبطالة وتمويل المرافق والمشروعات العامة والتعليم والصحة.. إلخ، كما أن الأمر لو كان كذلك فلماذا كانت أحاديث الرسول ﷺ، وأقوال وأفعال الخلفاء الراشدين والصحابة التي تحدثت عن حقوق أخري غير الزكاة.

ومن المثير للخجل في هذا الإطار أن حسن مالك أحد القيادات الإخوانية المعروفة والذي كان يمسك الملف الاقتصادي للإخوان ورئيس جمعية رجال الأعمال المصريين «جمعية ابدأ» التي باركها الرئيس محمد مرسي نفسه واجتمع بها وضمت ضمن ما ضمت رجال أعمال إخوان ورجال أعمال فلول مبارك، قال في تصريح له لوكالة رويترز للأنباء بتاريخ ٢٩/ ١٠/ ٢٠١١ «بأن السياسات الاقتصادية التي اتبعت في عهد الرئيس مبارك كانت تسير في الطريق الصحيح، لكن شابها الفساد والمحسوبية»، أي أنه يريد رأسمالية بدون فساد أو محسوبية.

وأضاف حسن مالك «أساند القرارات التي اتخذها رشيد محمد رشيد وزير التجارة والصناعة في عهد الرئيس حسني مبارك، والذي كان يعمل على تحرير القطاعات الصناعية - أي خصخصتها - واجتذاب المزيد من

الاستثمارات الأجنبية المباشرة».

وقال أيضا :«يمكن الاستفادة من القرارات الاقتصادية التي اتخذها نظام مبارك، فقد كان هناك قرارات صائبة في الماضي، وعرف رشيد محمد رشيد كيف يجتذب الاستثمارات الأجنبية جيدا، وكانت قراراته في هذا الصدد صائبة».

***

معركة الجمل ٣٦ هـ

الصراع الديني والصراع السياسي

من رحمة الله بأمة الإسلام أن وقعت معركة الجمل سنة ٣٦هـ لأنها وقعت بين فريقين من الصحابة، أولا الأمر الذى يعنى إمكانية وقوع قتال بين المتقين وبين المؤمنين وبين المسلمين دون أن يكون أحد الفريقين كافر والآخر مؤمنا. بل فقل كلاهما مؤمنا ومسلما ولو وقع هذا القتال بين طرفين من المسلمين فيما بعد دون حدوث موقعة الجمل، لكان الأمر قد انصرف إلى كفر أحد الطرفين وإيمان الطرف الآخر، أو كفر الطرفين معا، ولكن وقوع القتال بين صحابة رسول الله ﷺ ورضى الله عن الصحابة أجمعين، كان نوعا من التجربة العملية التى تؤدى إلى استنتاج أن الخلاف بين طرفين والقتال بينهما لا يخرج أحد منهم من الملة، بل يكون نوع من الخلاف السياسى أو الفكرى أو حتى الشخصى، أو حول وجهات النظر والأمر مردود هنا إلى البينة والله أعلم بها وليس نحن، ومن ثم فإن هذه المعركة قد حسمت أمر الخلاف الدينى إلى غير رجعة وأخرجت الإسلام

بالضرورة، من كل خلاف بين المسلمين الذين يكون لكل فريق منهم وجهة نظر صحيحة أو خاطئة.

وثانيا: هذا القتال وقع بين طرفين الأول بقيادة الخليفة الراشد على بن أبى طالب رضي الله عنه ومعه كثير من الصحابة الموثوقين والمعتبرين وهو مبشر بالجنة، والثاني فيه طلحة والزبير بن العوام وكل منهم مبشر بالجنة، والسيدة عائشة رضى الله عنها وهى زوجة النبى ﷺ في الدنيا والآخرة ولها كل الفضل والاعتبار، وبديهى أن ذلك لو كان صراعا دينيا لكان أحد الطرفين كافرا والآخر مؤمنا أو كلاهما كافر، وبما أن في الطرفين من هو مبشر بالجنة إذن فالأمر ليس صراعا دينيا، بل صراع حول وجهات النظر، أو الأولويات أو غيرها، أي حول السياسة والأفكار وليس الدين، وفي الحقيقة فإن الخلاف على وجهات النظر لا يجب أن يؤدي إلى القتال، ولكن إذا أدى لقتال فإن ذلك لا ينبغي أن يتحول إلى تكفير أو إخراج من الملة، بل يظل محصورا في نطاق ضيق وعلي الجميع أن يراجع مواقفه ويحاول أن يلتمس العذر لخصمه وأن يصل إلى وحدة المسلمين في النهاية.

وثالثا: فإن هذه المعركة كانت حول الخطأ والصواب في التقدير، وتحديدا حول الدعوة إلى القصاص من قتلة عثمان رضي الله عنه فورا أو حين تكون القدرة وألا يحدث ذلك فتنة أكبر، الرأي الأول كان لطلحة والزبير وعائشة، والثاني لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه أجمعين.

وإن كنا نرى أن وجهة نظر علي بن أبي طالب كانت الصحيحة وهذا رأي جمهور علماء أهل السنة والجماعة، وأن الخطأ كان عند معسكر طلحة والزبير وعائشة ﷺ، ولكن الأمر يظل محصورًا في الخطأ والصواب والنية يعلمها الله تعالى.

ورابعا: فإن هناك حديث كبير حول دور السبئية وعبدالله بن سبأ في الفتنة من أولها إلى آخرها، ونحن لا نرفض هذا الرأي ولا نشكك في صحة تلك المعلومات ولكن نحن أمام رجال ونساء عاقلون وعاقلات، لديهم خبرة وحنكة وورع، ولا يمكن لمحدث فتنة مهما كان ذكيا مثل عبدالله بن سبأ ومن كان معه أن يحققوا نتائج كبيرة أو صغيرة إلا إذا كانت هناك استعدادات عقلية أو نفسية أو مناخ ملائم لهذا، فالقابلية للفتنة شرط لنجاح مدبري الفتنة، وإذا لم تكن هناك قابلية للفتنة فلن تنجح أو تنجح في إطار محدود.

***

وقائع معركة الجمل:

سميت المعركة معركة الجمل لأن أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - كانت في المعركة في الجولة الثانية. وسط جيش البصرة تركب جملا جاءت به من مكة إلى البصرة، وكانت المعركة يوم الجمعة في السادس عشر من جمادي الثاني سنة ست وثلاثين هجرية في منطقة الزابوقة قرب البصرة،

ويقال إنها جاءت لتمنع وقوع القتال بين الطرفين والله تعالى أعلم، كانت المعركة على جولتين الجولة الأولى، كان قائد جيش البصرة المناوئ لعلي بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، بقيادة طلحة والزبير ﷺ واستمرت من الفجر حتى قبيل الظهر، ونادى علي في جيشه كما نادى طلحة والزبير في جيشهما لا تقتلوا مدبرا ولا تجهزوا على جريح، ولا تلحقوا خارجا من المعركة تاركا لها، وقد أصيب طلحة في بداية المعركة إذ جاءه سهم غرب لا يعرف من رماه فأصابه إصابة مباشرة ونزف دمه بغزارة فرجع إلى البصرة ووضع في دار فيها ليعالج، إلا أنه توفي ثم دفن في البصرة، أما الزبير فيقال إنه انصرف عن المعركة، وقتل خارجها وانتهت الجولة الأولى بانتصار جيش علي.

وفي الجولة الثانية حاولت السيدة عائشة رضي الله عنها وقف الحرب، ودعت إلى ذلك، إلا أن النبال أصابت هودج جمل عائشة، ثم اشتد القتال، وقتل أمام جمل عائشة كثير من الناس وقتل عبدالله بن الزبير بن العوام بعد أن قاتل قتالا شديدا وتم أسر السيدة عائشة، وقد أسفرت المعركة عن مائتي قتيل من الطرفين، وبالغ البعض في العدد إلى عشرات الألوف لزيادة الفتنة طبعا، وانتهت المعركة بانتصار جيش علي.

وما أن انتهت المعركة حتى نادى منادى على ألا يجهزوا على جريح ولا يتبعوا مدبرا ولا يدخلوا دار، ومن القي السلاح فهو آمن ومن أغلق

الباب فهو آمن وليس لجيشه من غنيمة إلا ما حمل إلى المعركة من سلاح وكراع وليس له وراء ذلك من شيء، بل أمر أن من يجد شيئا من متاعه من الجيش المناوئ لدي رجال جيش على فله أن يأخذه. ورفض فكرة السبي تماما وقال بعض أتباع عل: تحل لنا دماؤهم، ولا تحل لنا نساؤهم، قال على كذلك السيرة في أهل القبلة.

وتفقد الخليفة على بن أبي طالب الجرحى من الطرفين وقال: إنى لأرجو الله أن أكون من الذين قال الله فيهم ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾، ثم قال ومن هم إن لم نكن، ومن هم إن لم نكن ومن هم إن لم نكن..

إذن هذه معركة، وقع فيها قتال وقتال شديد جدا، ووقع فيها قتلى من الطرفين، وصلى على على القتلي من الطرفين، ويمكن أن نرجع ذلك إلى الفتنة من أتباع عبدالله بن سبأ، ولكن المقاتلون الأشداء كان فيهم المشهود لهم من الصحابة في الطرفين، فلا يكفي تفسير فتنة أتباع ابن سبأ لهذه المعركة، هناك مسئولية واضحة ومباشرة على الطرفين، وهكذا فإن بالإمكان أن يقاتل الصالحون المؤمنون المسلمون بعضهم بعضا، دون أن يكفر أحدهم الآخر، وسيدنا على رضي الله عنه رفض سبي النساء بل ورد الغنائم إلى مقاتلي الطرف الآخر، وترحم على الطرفين إذن

المسألة فيها صواب وخطأ لا أكثر ولا أقل، وهناك تفسير آخر أن بعض المتطرفين من جيش علي، كانوا يزيدون المعركة اشتعالا كلما هدأت، وهذا لا يصلح تفسير فعلي بن أبي طالب ليس هو الشخص الذي يقوده متطرفون، ورفض منطق الخوارج بعد معركة صفين وكانوا أشد قوة، إلا أن المتطرفين في كل زمان ومكان يضرون الأمة أيما ضرر حتى ولو كان رائدهم التورع الكاذب أو الصادق.

من دروس تلك المعركة أن من دخلها وتأولا ندم بعد ذلك وهو لم يغير موقفه السياسي أو الفكري، فما زال يرى أنه على صواب وأن الطرف الآخر على خطأ، ولكن ندم إلى انجراره إلى القتال فقط، فندم علي وندم طلحة والزبير قبل أن يموتا وندمت السيدة عائشة رضي الله عنهم أجمعين.

من دروس تلك المعركة أيضا أن رجلا جاء إلى الزبير بن العوام أثناء المعركة وعرض عليه أن يقتل عليا، وذلك بأن يندس مع جيشه ثم يفتك به، فأنكر عليه الزبير ذلك بشدة، وقال لا، لا يفتك مؤمن، وأن الإيمان قيد الفتك، ولعل تلك الواقعة تكون عبرة للتمعن والتدبر فيمن يستحل اغتيال المسلمين أيا كانوا تقاه أو عصاة.

***

من الضروري هنا أن نذكر بعضا من فضائل الطرفين حتى نتأكد أن

المعركة كانت بين فضلاء، فالسيدة عائشة شهد لها الخليفة على بن أبي طالب نفسه وعاقب من ينال منها بمائة جلدة وعمار بن ياسر رضي الله عنه غضب على من يقدح في عائشة حليلة رسول الله ﷺ. والسيدة عائشة هي أحب الناس إلى رسول الله ﷺ كما جاء في البخاري وغيره، وكان الوحي ينزل على الرسول ﷺ وهو في لحافها دون غيرها من نساء النبي. وطلب أن يذهب إلى بيتها في مرض الموت وسمحت نساء النبي له بذلك فمات عندها، وفي الحديث الصحيح ما معناه بأن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام، وأيضا أنها زوجة الرسول ﷺ في الدنيا والآخرة.

والآثار النبوية عن فضل عائشة أكثر من ذلك بكثير جدا، ويكفي أن على بن أبي طالب ﷺ، أكرمها بعد الأسر، وجهزها جهاز لائقا بالسفر حتى أعادها إلى بيتها معززة مكرمة.

أما الزبير بن العوام ﷺ، فهو أحد المبشرين بالجنة، وهو أول من سل سيفه في سبيل الله وهو من المهاجرين إلى الحبشة ومن أبطال غزوة بدر بل ومن أكبر أبطال معركة أحد وهو من أطلق عليه الرسول ﷺ أنه من حواريه، قائلا ما معناه في غزوة الخندق «**لكل نبي حواري وحواري الزبير**».

وفي كل معركة كان الزبير بطلا في المعركة مع بني قريظة وفي غزوة اليرموك وفي فتح مصر، وقد مدحه حسان بن ثابت في أبيات من الشعر لا تزال محفوظة أثبت فيها حسان بن ثابت أن الزبير فارس شجاع وبطل

مغوار وأنه حواري الرسول وأن الزبير كان على عهد النبي وهديه ومنهجه.

وهذا طلحة بن عبيد الله فقد حضر كل المعارك التي خاضها رسول الله ﷺ وهو أحد المبشرين بالجنة، وكان البطل المغوار في معركة أحد، ولا تذكر معركة أحد إلا وذكر طلحة في دفاعه المجيد عن رسول الله ﷺ وهو بوصف الصحابة كان شهيدا يمشي على الأرض، وكان سخيا ينفق في سبيل الله كثيرا.

أما على بن أبي طالب فلا يحتاج إلى كلام وكذا من في جيشه من كبار الصحابة من الثابت أن كلاً من طلحة والزبير والسيدة عائشة رضي الله عنهم خرجوا إلى البصرة وبدأوا في تحريض القبائل بدعوى القصاص لعثمان ﷺ، وأن ذلك للضغط على علي ﷺ لتحقيق ذلك، وهذا بداهة يقود إلى الصدام وبذلك حتى ولو كان هناك سبئية - أتباع ابن سبأ ينفخون في نار الفتنة، فإن هناك مسئولية على هؤلاء الصحابة.

وقد أرسل كل من طلحة والزبير والسيدة عائشة إلى أعيان وأشراف القبائل يستعينون بهم على قتلة عثمان وقد استجاب لهم الكثيرين بالطبع، بل إن السيدة عائشة نفسها أرسلت رسائل إلى الأنصار تدعوهم لمناصرة هذا الفريق.

ومن الثابت أيضا أن عليا ﷺ كان منكرا لقتل عثمان وتبرأ من دمه وقد أعلن ذلك بوضوح في خطبه ومواقفه بل وتبرأ علنا من قتل عثمان ولكنه

كان يريد أن يثبت أولا من قتل عثمان ويحددهم تحديدا، وأن ينتظر حتى تستقر له الأمور فتؤخذ الحقوق، وأن على الجميع الانخراط تحت لواء الخلافة فتقوى الشوكة وتستقر الأحوال ثم يرفع الأمر من أولياء الدم، وأن تأخير القصاص أقل مفسدة من تعجيله، لأن ذلك قد يفتح بابا عريضا للقتال بين المسلمين وبين القبائل المختلفة وهذا بالطبع يوافق رأي جمهور علماء السنة حتى يومنا هذا، أما الطرف الآخر فيرى ضرورة القصاص الفوري من قتلة عثمان مهما كان الأمر إعمالا لشريعة الإسلام في القصاص.

ومن الغريب هنا أن صداما وقتالا وقع بين أتباع عائشة وطلحة والزبير وبعض قتلة عثمان بقيادة حكيم بن جبلة، وانتهى الأمر بقتل جماعة حكيم بن جبلة جميعا، إلا واحدا منهم نجح في اللجوء إلى قبيلته، ولم يذهب وراءه جيش طلحة والزبير لقتله خوفا من قبيلته، وهذا اعتراف عملي بصحة موقف علي في تأخير القصاص.

ومن الثابت أيضا أن محاولات للصلح بين الطرفين قد حدثت ومنها وساطة القعقاع بن عمرو التميمي، وكان يرى التأني في القصاص من قتلة عثمان حتى تنتهي الخلافات وتجتمع كلمة الأمر على أمير المؤمنين على بن أبي طالب وأن عليهم أن يبايعوا عليا، وكاد الصلح أن يحدث، إلا أن الأمر سار إلى الحرب بعد ذلك، بسبب المتطرفين ودعاة الفتنة وغيرها من الأسباب، التي لا تسقط المسئولية عن أي من الطرفين لا على ولا

طلحة ولا الزبير ولا عائشة رضى الله عنها.

وفي كل الأحوال هذا صراع سياسي على السلطة، أو خلاف يصل إلى القتال في وجهات النظر، وليس صراعا دينيا فيه كفر وإسلام، مثلا وأنه لو كان الجيشان قد انصرفا بعد وساطة القعقاع، لما نجح المتطرفون ودعاة الفتنة من الجيشين في إشعال الحرب.

ويرى جمهور العلماء أن عليا ﷺ كان على صواب والطائفة الأخرى سواء من جيش طلحة والزبير أو جيش معاوية مع اختلاف بينهم كانوا معبأة متأولين وأن أصحاب كل هذه الطوائف مؤمنون لا يخرجون بالقتال بينهم عن الإيمان ولا يفسقون.

***

الصراع بين على ومعاوية رضي الله عنهما يدخل تحت نفس التقييم، فالجميع لا يكفر ولا يفسق بل هو متأول، وصحيح أن معاوية رضي الله عنه صحابي جليل ولكنه ليس من المبشرين بالجنة ومن ثم فإن معركة صفين أقل دلالة في الأمر من موقعة الجمل.

الصراع سياسي بحثا عن السلطة، أو تأول واختلاف وجهات نظر، وكل يتصور أنه على الصواب، أو على الأقل يتصور أن هذا لا علاقة له بثوابت الدين، فهو خلاف على أمور دنيوية ولكن المشكلة أن الذين

فسروا الموضوع تفسيرا دينيا مثل الشيعة مثلا وصلوا إلى حدود تأويل آيات وأحاديث وأحداث لإثبات ليس أحقية على في الخلافة، بل إلى أنه وصي النبي ﷺ، وأن هناك نص ديني يعطيه الحق في الإمامة له ثم للحسن والحسين ثم أبناء الحسين، وأن ذلك جزء من الدين، وبالتالي فهم يخطئون أبابكر وعمر وعثمان وهؤلاء بدورهم أي الشيعة انقسموا فيما بعد إلى جماعات كثيرة مثل الإمامية والإثنا عشرية والإسماعيلية وغيرها وكان الخلاف بين فرق الشيعة خلافا دينيا أيضا.

وهناك أيضا الخوارج، الذين فسروا الأمر تفسيرا دينيا بمعنى أنهم كفروا معسكر معاوية، وأرادوا أن يوافقهم على على ذلك، فلما رفض كفروه هو أيضا، وأصبح الخوارج يكفرون عليا ومعاوية وعمرو ابن العاص، وكل من لم يعترف بكفر هؤلاء من المسلمين، بل وكفروا مرتكب الكبيرة، ثم انقسموا إلى جماعات شتى، كلها تكفر بعضها البعض وتتقاتل، ومن الغريب أن هؤلاء من أكثر الناس تعبدا وورعا وشجاعة، ولكن عقولهم ضعيفة، كحالة المتطرفين في كل زمان ومكان.

وهكذا فإن إدخال الدين في الصراع السياسي مفسدة كبيرة جدا، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ومن المفارقات الطريفة في هذا الصدد أنني كنت أتحدث عن ضرورة عدم تحويل الصراع السياسي إلى صراع ديني، لأن ذلك يؤدي إلى نتائج

وخيمة من تفكيك المجتمع وظهور فرقة دينية جديدة على غرار الاثنا عشرية، الشيعة الإمامية، أو الإسماعيلية أو فرق الخوارج، لأن تحويل الصراع السياسي إلى صراع ديني، يضطر المتنازعين إلى استخدام نصوص دينية لإثبات صحة موقفهم، ثم تكفيرالآخر، ثم الانعزال عن المعارضين لرأيهم، ويؤدي في النهاية إلى تحول طرف أو أكثر في الصراع إلى فرقة دينية جديدة، وكنت أستدل في هذا الصدد بمعركة الجمل، التي كان فيها الطرفين من المبشرين بالجنة، وبالتالي لا يمكن تكفير طرف منهم، وإزاء ذلك الرأي رأيت وسمعت بنفسي أحد المتعاطفين مع الإسلاميين في مصر، يقول إنه لا دليل أصلا على وقوع موقعة الجمل حتى لا يعترف بالصراع السياسي بدلا من الصراع الديني، وهذا أمر مضحك بالطبع، وطلب مني أن آتي بدليل على وقوع تلك المعركة، وبديهي أنني رفضت أن آتيه بدليل، لأنه أمر بديهي ومعروف ومشهور، فيمكنك أن تختلف على الأحداث والتفاصيل، ولكن أن تنكر الواقعة ذاتها، فهذا أمر مضحك، وقلت له فقط إنه بالقياس إلى ذلك، فهل لديك دليل على وجود شخصية نابليون بونابرت مثلا أو صلاح الدين الأيوبي أو قطز أو الحرب بين الفرس والروم مثلا، وضحك الحاضرون.

***

٣٣ - مقدمة في «لاهوت» التحرير الإسلامي

آلة شيطانية ضخمة، تروسها بشر، تقتل الأطفال، تمتص دماء البشر، تعذب المرأة وتظلمها، تجتث جذور الثقافات وتنشر المذابح والتطهير العرقي، وحروب الإبادة، والطائفية والعنصرية، الاستعمار، النازية، الفاشية، العنف، القهر، تدمير القيم، نهب ثروات الشعوب والأفراد بلارحمة وبلا هوادة، وفي كل يوم جديد يزداد جشع تلك الآلة الشيطانية حتى أنها بدأت تأكل نفسها وتنفصل حتى عن إطارها الاجتماعي لتصبح هي ذاتها مستقلة عمن صنعوها وخطرا عليهم أيضا.

هذه الآلة الشيطانية هي بالتحديد النتيجة الحتمية للصعود الغربي بدءًا من الكشوف الجغرافية والاستعمار وسباق الإعلام وانتهاء بالبورصات العالمية التي تعمل ٢٤ ساعة في الـ ٢٤ ساعة والخبراء والحاسبات الضخمة والأقمار الصناعية والبث المباشر، البنك الدولي والجات وصندوق النقد الدولي، ومجلس الأمن وقوات حفظ السلام الدولية! وأخيرًا الشركات العابرة للقوميات والتي أصبحت ميزانية واحدة منها أكبر من ميزانية دول، .. هي مجتمعة ميزانيتها أكبر من ميزانية الولايات المتحدة الأمريكية

نفسها، أنه عصر الفوضي واللاثقافة واللاحضارة.

وضحايا هذه الآلة بالملايين، بل ألوف الملايين، شعوب كاملة، أطفال، نساء، رجال، حضارات، ثقافات، فقر، جهل، ومرض، مدن الصفيح وإنسان بلا جذور، تخريب بحت للهياكل الاقتصادية والاجتماعية ليحل محلها كومة ضخمة من الخردة وناس بلا مستقبل بل بلا حاضر أيضًا.

هل نقول إن هذه الآلة الشيطانية هي المنظومة الحضارية الغربية باعتبار أن تلك المنظومة الحضارية الغربية هي التي أفرزت تلك الآلة الشيطانية.. نعم ولكن أيضا لا لأن تلك الآلة أصبحت نفسها أكبر من تلك المنظومة واستقلت عنها.

وليس هناك من حل بالطبع سوي تدمير هذه الآلة الشيطانية - الثورة - ثورة المحرومين والفقراء والمهمشين والمقهورين في كل مكان، ثورة تضم كل ضحايا هذه الآلة، الأفارقة السود، الشعوب المطحونة في آسيا وأمريكا اللاتينية، ضحايا تلك الآلة داخل الغرب نفسه كالمرأة مثلا، المرأة الغربية التي دفعت ثمن الشذوذ والإباحية وتعاني آلامًا مبرحة من مجتمع بلا قيم ولا ضمير.

وعلينا الآن أن نحدد طبيعة هذه الآلة الشيطانية وكذا جذورها والمنظومة الاجتماعية التي أفرزتها، وكذلك تطوراتها حتى وصلت إلى حالتها الراهنة البشعة وإذا كان من المفيد أن نبدأ بشيء، فهو المنظومة

الاجتماعية والحضارية التي أفرزت تلك الآلة الشيطانية، وهي المنظومة الحضارية الغربية التي أعطت تلك الآلة سماتها الثابتة والمتغيرة أيضا، والحضارة الغربية حضارة تقوم على الوثنية والعنف والقهر، ولا يمكن فهم هذه الحضارة ولا ميكانيزمات عملها بعيدا عن سمات العنف والقهر والوثنية، الحضارة الغربية هي حضارة إغريقية هيلينية في جوهرها، أما المسيحية فلم تكن إلا قشرة خارجية لتلك الحضارة، ذلك أن المسيحية تحولت إلى دين إغريقي وثني داخل الغرب ولم يتحول هذا الغرب إلى المسيحية، وعلينا أن ندرك في هذا الصدد أن المسيحية دخلت إلى الغرب عن طريق إمبراطور آمن بها وفهمها على طريقته الإغريقية ثم فرضها على شعبه فرضا، ثم تبنت ممالك هذه الديانة وأكرهت الآخرين على اعتناقها وإلا تعرضوا للذبح، وليس التنصير الوحشي للساكسونيين على يد القديس يونيفاس إلا مجرد نموذج ينطبق على كل الحالات تقريبا، وهكذا تحولت المسيحية إلى ديانة إغريقية، وبدلا من التسامح المسيحي، أصبح العنف جزء أصيل من المسيحية الغربية.

وحتى اليوم يتم تنصيب بابا روما وفقًا لقواعد البروتوكول الخاص بتنصيب كهنة المعابد الإغريقية، أضف إلى هذا أو قل نتيجة لهذا فإن الكاثوليكية لعبت دورًا هامًا في عملية الاستعمار الغربي للعالم، وكانت دائمًا طليعة للاستعمار وباركت دائمًا أو شاركت في عملية قهر ونهب

الشعوب الأخرى على يد الغرب في المرحلة الاستعمارية حتى أن الاستعمار في رموز كان عبارة عن عسكريين وتجار ومبشرين!

والبروتستانتية، لم تكن إلا تطورًا في المسيحية الإغريقية واكب مرحلة أخرى من مراحل تطور آلة العنف والقهر الغربي ولم تكن إصلاحا دينيًا بل كانت وصفة عالمية للنجاح في الأعمال التجارية، ولم تكن عقلانيتها المزعزمة إلا نفعية حقيقية وباختصار كان الاقتصاد السياسي هو الديانة البروتستانتينية الجديدة ولا ننسى أن المسيحية الغربية التي أصبح العنف سمتها الرئيسية ارتبطت بالمذابح الدينية والحروب الطائفية ومحاكم التفتيش!

مع الصعود الغربي إبان ما يسمي بعهد النهضة الأوروبية، تم بعث الثقافة الإغريقية والهيلينية، وتم بعث الدول والفكرة القومية وظهرت البروتستانتينية لتلائم قيم العقلانية والتنوير والنفعية وأصبحت ديانة جوهرها الاقتصاد السياسي وبدأت مرحلة الاستعمار، أو ما يسمي الإعلام حيث تسابقت الدول الأوروبية على استعمار العالم، من خلال إبادة شعوب أمريكا وأستراليا، ومن خلال نهب ثروات تلك القارات المكتشفة وكذا نهب ثروات الشعوب في آسيا وأفريقيا، ثم استرقاق سواعد السود لبناء القاعدة الإنتاجية للغرب، ومن هذا التراكم للثروات المنهوبة واستخدم الرقيق تراكمت الأموال، وظهرت بنوك لتمويل عمليات الاسترقاق أو التجارة خلف البحار وظهرت الثورة الصناعية أو التقدم

الصناعي الغربي والرأسمالية التي أصبحت منذ تلك اللحظة سمة رئيسية من سمات الآلة الشيطانية، ومن سمات الغرب والحضارة الغربية، ويجب أيضًا أن نضع في اعتبارنا أن الرأسمالية أيضًا أصبحت أداة قاسية ساهمت في المزيد من الاستعمار وفتح الأسواق والنهب والقهر وتطوير الأداة العسكرية للغرب ومع عام ١٩١٤ كان معظم العالم خاضعًا للاستعمار الأوروبي، ولكن كان من الطبيعي أن الآلة الشيطانية لا تكف عن العنف فبعد أن مارست هذا العنف والنهب على العالم بأسره مارسته أيضا مع نفسها، فكانت الحرب العالمية الأولي والثانية.

واستطاعت الآلة الغربية الشيطانية أن تطور نفسها، فكانت مرحلة ما يسمي بتصفية الاستعمار، أو قل مهزلة تصفية الاستعمار ذلك أنه لم يكن أكثر من تطوير للوسائل في عملية النهب والقهر الغربية المستمرة.

ويعبر المفكر الفرنسي ك موريل عن ذلك قائلا :«إن أروع ما حققه الاستعمار هو مهزلة تصفية الاستعمار، لقد انتقل الرجل الأبيض إلى الكواليس، لكنه لا يزال مخرج العرض المسرحي».

وبدلا من العسكر والتجار والمبشرين، أصبحت هناك حكومات وطنية تقوم بمهمة القهر نيابة عن عسكر الغرب وتقوم أيضا بالوكالة في تسهيل عملية النهب، أصبح هناك جيش وطني وشرطة وطنية مهمتها الوحيدة القمع والقهر، وأصبح هناك وكلاء تجاريون يمررون عملية

النهب، وأصبح هناك مثقفون مغتربون يساهمون في اجتثاث جذور الثقافة الوطنية وترويض الإنسان وتنويمه دائما.

تطورت آلة النهب والقهر، فأصبحت عبارة عن خبراء وبورصات عالمية تعمل ليلا ونهارا، أقمار صناعية ومحطات بث مستمرة لاجتثاث الثقافات، مجلس أمن وقبعات زرقاء شركات عابرة للجنسيات، شعارات ومبادئ تسهل عملية النهب وتزيده قوة مثل حرية التجارة، حقوق الإنسان، التنمية التصنيع، التنوير.. إلخ.

والأمر الآن أشبه بمركز كبير للنهب تمتد منه شبكة ضخمة من الأنابيب إلى كل مكان على وجه الأرض، إنه وحش مفترس يمد خراطيمه في كل اتجاه يمتص دماء الآخرين ويتغذي على خلاياهم العصبية ويجرهم إلى حالة غير مسبوقة من البؤس، وهناك آلات رفع ضخمة تساهم في سرعة تدفق الثروات المنهوبة مثل البنك الدولي، صندوق النقد الدولي، البورصات، حرية التجارة، المؤتمرات العالمية في مجلس الأمن.. إلخ، وحتى القروض والمنح التي تمنح للمنهوبين من وقت لآخر ليست إلا وسيلة لتنظيف أنابيب النهب وزيادة كفاءتها والمزيد من بناء وتشييد محطات لرفع الثروات المنهوبة والقضاء على أية نتوءات اقتصادية أو ثقافية أو هياكل اجتماعية تعرقل أو تبطئ عملية النهب.

وفي كل يوم يزداد الوحش جشعًا ويزيد جوعه، وفي كل يوم تتطور

الآلة، آلة النهب والقهر الوحشية وتزداد شراهة ويزداد الضحايا كما ونوعا بالتالي، وآخر التطورات في هذا الصدد هو الشركات العابرة للجنسيات، وبدلا من أن تقوم بالمهمة دول قومية، هولندا ثم إنجلترا ثم الولايات المتحدة مثلا، أصبحت الفكرة القومية وسيادة الدول ذاتها في مهب الريح، وإذا كانت تلك الشركات العابرة للجنسية اليوم يمثل رأس مال إحداها أكبر من ميزانية دولة، وتمثل ميزانيتها مجتمعة أكبر من ميزانية الولايات المتحدة الأمريكية ذاتها فإن الأمر مرشح للاتساع في هذا الاتجاه، وهكذا فنحن أمام تطور جديد لشكل وطبيعة النهب سيؤدي بالضرورة إلى قيام علاقات جديدة واقتصاد سياسي جديد، ومزيد من الضحايا الذي لن يفلت منه هذه لمرة حتى الغرب ذاته، فالأمر أصبح أكبر من الدول القومية وحتى من قارة بأكملها.. إن الوحش أصبح غير خاضع لأحد ولم يعد له مروضون أو مسيطروون.. إنه المزيد من البؤس.. والفوضى والجنون أيضا.

إن أحد علامات هذه الفوضي هو تنميط الإنسان وفقًا لثقافة واحدة، وإذا كان الغزو الثقافي والبث المباشر وغير المباشر وسيطرة الغرب على وسائل مهيمنة لنشر ثقافة معينة كان بهدف اجتثاث جذور الثقافات الأخرى وتحويل الإنسان من خاضع بالقوة للنهب إلى مدمن لهذا النهب بمعنى أن يسعي هو نفسه إلى الوحش مصاص الدماء ويطلب منه ويلح أن

يمص دمه فإن الأمر حتى سوف يتجاوز هذا التصور إلى عالم بلا ثقافة ولا حضارة على الإطلاق أو نهاية العالم.. ولكن ينبغي أن يكون نهاية الغرب وحده وليس نهاية العالم وهذا يقتضي الثورة لتحطيم الآلة الشيطانية.

على أي حال يجب أن نفكر في معني العالمية، الثقافة العالمية وأن نفكر فيما يروجون له من قيم حضارية واحدة وغيرها، وأن نديم التأمل في معنى أن مراكز البث الإعلامي الغربي تسيطر على صناعة الأخبار والمعلومات والفنون وبالتالي المشاهد والأذواق والأوامر في إطار أنه تغريب للعالم بالقوة بهدف قتل واقتلاع جذور الثقافات الأخرى، وأيضًا هو في النهاية معاداة لكل ثقافة، لأنه في عالم ذو ثقافة واحدة فإنه لا ثقافة على الإطلاق! إنه عصر القرود والكائنات المنحطة.

سنبحث الآن عن الضحايا من جهة.. والمستفيدين من جهة أخرى من آلة القهر والنهب الشيطانية مع الأخذ في الاعتبار أن الضحايا يزدادون دائما كما ونوعا، وأن المستفيدين يقلون باستمرار لأن الآلة الشيطانية تزداد شراهة بمتوالية هندسية، وسنبحث عن الحل أيضًا.. سنبحث عن العدل المفقود وهو بحث الإنسان الدائم.

وسنبدأ بسؤال ساذج وهو هل يمكن إقناع المستفيدين بالكف، عن النهب والقهر، هل يمكن إيقاف عمل الآلة الشيطانية عن طريق الإقناع، أي هل يمكن تحقيق عدل شامل أو حتى جزئي عن الطريق السلمي،

والإجابة الوحيدة هي لا.. لأن طبيعة الآلة وجوهرها عدواني، قهري، نهبي، ومن العبث طبعا إقناع الوحش بالكف عن امتصاص الدماء.

إذن لا طريق إلا الثورة، ولكن ما هي أيديولوجية تلك الثورة وإلي أي جذر اجتماعي وثقافي تستند، ومن هم جنودها؟! وهذا سؤال نجيب عليه بعد فرز المعسكرن، معسكر الاستكبار، وكهنة الآلة الشيطانية ومعسكر الضحايا وبالتالي جنود الثورة.

وسنبدأ في دراسة معسكر الاستكبار والمستفيدين، وسوف نستطرد قليلاً باتجاه الماضي.. في بداية الاستعمار كان من الممكن أن نجد في المستفيدين دول قومية، أو حتي طبقات اجتماعية فقط داخل هذه الدول الاستعمارية التجار، البرجوازية الصناعية، العسكر، المبشرين.. أما الآن ومع التطور الهائل للآلة الشيطانية مع الشركات العابرة للجنسيات والجنرالات الكبار وأصحاب البنوك الكبري وشبكات البث، وعلي مستوي أقل الخبراء، المثقفين المغتربين الذين يبيعون كلماتهم لقاء شيء من دماء الفريسة والمرتبطين بالترويج للآلة الشيطانية، الوكلاء التجاريون والحكام المحليين في العالم المستضعف الذين يشاركون في ذبح شعوبهم ونهبهم لقاء ثمن كبير أو صغير.

أما معسكر الضحايا فهم كل الشعوب المقهورة والمنهوبة في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية، وهم أيضا المرأة في الغرب التي حولتها الآلة

إلي سلعة تجارية والتي أتعسها السياق الاجتماعي الغربي الذي يسمح بالشذوذ، فمثلا لو كان هناك ٣٠٪ من هذه المجتمعات شواذ وهؤلاء يستهلكون مثلهم في إشباع شذوذهم، فماذا يبقي للمرأة الغربية سوي العنوسة والحرمان، ثم لماذا تتحمل المرأة عبء الجنين غير الشرعي وحدها وحتي لو كان هناك حديث عن إجهاض آمن.. ليس هناك طبعا إجهاض آمن لأنها عملية جراحية في النهاية لها آثارها الصحية مهما كانت الوسائل الصحية متقدمة، أليس هذا دليل علي الظلم الواقع علي المرأة، لماذا لا تحتفظ بجنينها ويتحمل الرجل معها أعباء ولادته وتربيته بدلا من إجهاضه وقتله، المرأة إذن في الغرب ضمن معسكر الضحايا وضمن جنود الثورة بالتالي والطبقة العاملة الغربية وصغار الموظفين والعاطلين أيضا والأطفال اللقطاء كل هؤلاء جنود في الثورة لأنهم ضحايا وإذا كان الغرب في مرحلة تاريخية من تطور آلة النهب والقهر قد نجح في رشوة البروليتاريا وتحييدها بالتالي عن طريق شيء من المكاسب الاقتصادية والاجتماعية فإن استمرار تطور الآلة وبالتالي زيادة جشعها ونهمها اللانهائي سيجعل من المستحيل استمرار تقديم هذه الرشوة وبالتالي فإن هؤلاء الآن أو غدا سيجدون أنفسهم في معسكر الثورة ويجب الأخذ في الاعتبار هنا تزايد معدلات البطالة والتخلص من العمالة باستمرار في الغرب، وهذ أمر مرشح للاتساع والتفاقم.

بقي علينا أن نبحث في أيديولوجية تلك الثورة، وينبغي في البدء أن نقرر حقيقة لا يمكن الشك فيها من منظور فلسفي ومن منظور واقعي وتجريبي أيضا، ذلك أن أيديولوجية أي ثورة لا يمكن أن تكون مستمدة من نفس الأرضية الاجتماعية والفلسفية بل والمعرفية التي أنشأت الأوضاع التي سوف نثور عليها، ولعل هذا بالتحديد كان السبب في فشل تجربتين ثوريتين هما الثورة الاشتراكية الماركسية، ولاهوت التحرير المسيحي في أمريكا اللاتينية، ولا شك الآن ومن منطلق تجريبي ومعرفي أن ثورة تستند في أساسها الأيديولوجي والثقافي علي ثقافة أفرزت الحالة التي ينبغي الثورة عليها هي ثورة زائفة، بل هي تكريس وتقوية للأوضاع التي يجب الثورة عليها، لابد إذن أن تكون الأيديولوجية الثورية نابعة من سياق ثقافي مخالف بل وعدائي للأرضية الفلسفية والثقافية التي أفرزت الحالة والظاهرة التي تستهدف الثورة الإطاحة بها.

فالماركسية مثلا نشأت من قلب الفلسفة الأوروبية، وبالتحديد الألمانية، واستندت في تحليلها الاقتصادي والتاريخي علي علوم الاقتصاد السياسي وعلم التاريخ الغربي والأوروبي بالتحديد، ولذلك فشلت وما كان لها إلا أن تفشل بل إن فشلها الطبيعي كان دليلا جديدا علي فساد المنظومة الحضارية الغربية برمتها.

يقول المفكر الفرنسي سيرجي لاتوش في كتابه تغريب العالم :«إن

الاشتراكية كما تحققت في الواقع ليست سوي شكل خاص مختلف من النظم الرأسمالية والمجتمعات الغربية، فنحن نلقي بكل تأكيد التصنيع مع التمدين وتحويل الجماهير إلي بروليتاريا لكن بوجه خاص عبادة الآلة والتقنية والعلم والتقدم واستئناف مشروع الحداثة المتمثل في قهر الطبيعة.. إنها نفس ميكانيزمات الرأسمالية».

ويقول: «الرأسمالية مجرد آلية- طبيعية عند الليبراليين، اصطناعية عند الاشتراكيين، وبالتالي فالرأسمالية هي الليبرالية والاشتراكية معًا وهي مظهر من مظاهر الخصوصية الغربية للغرب».. ويضيف:«إن النموذج السوفيتي مثل شكلاً مختلفًا للمشروع الغربي أكثر مما مثل بديلاً حقيقيًا له».

ويقول المفكر الإنجليزي أرنولد توينبي :«إن المنافسة بين الاتحاد السوفيتي السابق والولايات المتحدة الأمريكية علي زعامة العالم بين الشيوعية والمذهب الحر بالتالي علي اجتذاب ولاء البشرية هو موضوع نزاع عائلي داخل أسرة المجتمع الغربي».

ولنفس الأسباب كان من الطبيعي أن تفشل أيضا مسألة لاهوت التحرير المسيحي في أمريكا اللاتينية وأن تكون ثورة زائفة أيضًا، لأن جذرها الثوري نبع أيضا من نفس المنظومة الحضارية الغربية ومن نفس الوضع الاجتماعي الذي كان ينبغي الثورة عليه، فلاهوت التحرير المسيحي في أمريكا اللاتينية ينبع من الكاثوليكية وهي مسيحية غربية

وجزء من المكون الثقافي والحضاري الغربي تحمل نفس سماته وعيوبه أيضًا، بل أكثر من هذا فإن الكاثوليكية بالتحديد تتحمل جزء كبير من جريمة استعمار أمريكا اللاتينية وما حدث فيها من إبادة للسكان الأصليين ثم نهب مستمر فيما بعد لثرواتها وشعوبها، وفي هذا الصدد يقول سمير مرقص في مقال له في مجلة القاهرة عدد يناير ١٩٩٤ تحت عنوان (تجربة لاهوت التحرير) «كانت الكنيسة الكاثوليكية جزءًا من المشروع الكلي لغزو واستعمار شعوب القارة الجديدة وقد ساهمت الكنيسة بفاعلية في فرض القانون الاستعماري على المواطنين الأصليين للقارة اللاتينية، ومن المعروف تاريخيًا أن البابا الكسندروس السادس هو الذي قضي بتقسيم القارة الجديدة بين الأسبان والبرتغال».

كانت الدودة إذن داخل الثمرة في كل من الثورة الاشتراكية ولاهوت التحرير المسيحي في أمريكا اللاتينية لأنها نتجت من نفس الشجرة التي كان ينبغي أصلا قطعها وحرقها، وكان من الطبيعي أن تفسد الثمرة.

وعلينا إذن أن نبحث عن جذر أيديولوجي للثورة العالمية على الآلة الشيطانية آلة النهب والقهر الغربية خارج شجرة الحضارة الغربية.

ينبغي إذن أن تنتمي إلى ثقافة مغايرة، وذات جذر حضاري مختلف، وبما أن جنود الثورة هم كل شعوب آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية بل والمرأة والعمال والعاطلون وصغار الموظفين في أوروبا وأمريكا فإن

أيديولوجية الثورة ينبغي أن تستند إلى حضارة ذات قيم عالمية ولا شك أن الإسلام هو وحده الذي يمتلك كل هذه الخصائص التي ترشحه لأني كون جذرًا ثقافيًا لتلك الثورة، فالحضارة الإسلامية حضارة عالمية بكل المقاييس، فمن ناحية فالخطاب الإسلامي لم يوجه إلى منطقة جغرافية أو عرق بشري معين بل للعالم كله﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾، ومن ناحية أخري فإن الحضارة الإسلامية ساهم فيها الأسود، الأصفر، والأبيض، والأحمر، الأفريقي والآسيوي والأوروبي، التركي والهندي والعربي والفارسي.. إلخ، وإذا كانت التجربة قد أثبتت أن تلك الحضارة استوعبت مساهمات الجميع فكانت عالمية بالتجربة، وأن خطابها عالمي في أصله فإنها وحدها القادرة مرة أخري على احتضان الثورة العالمية الجديدة وأن تكون جذرًا أيديولوجيًا لها.

وكذلك فإن الحضارة الإسلامية - وإنطلاقا من الإسلام - لم تحاول إكراه أحد على اعتناق الدين الإسلامي﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ﴾.. ومن هنا نجد أنه مازال في العالم الإسلامي أقليات مسيحية ويهودية.. إلخ.. بل نجد أن تلك الأقليات ومن خلال جو التسامح اندمجت في الحضارة الإسلامية دون أن تدخل الإسلام، مما يدل على أن الإسلام هو دين رباني يمكن أن تكون حضارته وثقافته أيديولوجية لغير المسلمين.

نلاحظ أن الحضارة الأوروبية غير عالمية رغم زعمها وترويجها لهذا المصطلح، لأن العالمية تقتضي معايير عالمية، ولا يمكن لحضارة أفرزت العنصرية ونهب الآخر أن تكون عالمية، ولا يمكن لحضارة قامت علي استلاب الآخر وقهره أن تكون عالمية.

وبالإضافة إلي ما سبق فإن الإسلام لم يعرف العنصرية **«كلكم لآدم وآدم من تراب»**، **«لا فرق بين عربي ولا أعجمي ولا أسود ولا أبيض»** وكذلك دعا إلي استثمار البيئة وليس قهرها، ودعا إلي العدل والانصاف والحرية فالجهاد الإسلامي مثلاً كفريضة علي المسلمين يتوجه لإزالة القهر والنهب وإزالة الاستكبار والاستبداد ومحكوم أيضًا باعتبارات وقيم رفيعة بحيث لا يكون هناك عدوان إلا علي الظالمين ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ فتنة الظلم، والنهب، والقهر ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾﴾، فغايات الثورة الإسلامية وبالتالي العالمية هي القضاء علي النهب والقهر والعنصرية والتغريب وتدمير الآلة الشيطانية الغربية وتحقيق العدل والمساواة واللاعنصرية بل والمجتمع اللاطبقي واحترام كرامة الإنسان أليست هذه هي نفس المبادئ الإسلامية.

وكراهية الظلم - بل وجعل الثورة عليه فريضة إسلامية هي من الأمور المعلومة من الإسلام تمامًا، ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾، وفي الحديث القدسي **«وانتقمن**

ممن رأى مظلومًا فقدر أن ينصره فلم يفعل» أي أن رؤية الظلم ولو على الآخرين وعدم الثورة على الظالم إنصافًا للمظلوم أمر يستوجب انتقام الله تعالى وغضبه.

ويقول الرسول ﷺ: **«لا يقفن أحدكم موقفًا يقتل فيه رجل ظلما فإن اللعنة تتنزل على من حضر حين لم يرفعوا عنه، ولا يقفن أحدكم موقفًا يضرب فيه رجل ظلمًا فإن اللعنة تتنزل على من حضره حين لم يرفعوا عنه»**.

وفي اطار الآداب والقيم المعروفة للثورة والجهاد الإسلامي ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

والتراث الإسلامي نصوصا وحضارة غني بالدعوة إلى الثورة على الظالمين وفق قيم وآداب رفيعة تحول بين الخلط بين الثورة والفتنة والبغي، وتحدد هدف الثورة «الظالمين» ولا شك أن آلة النهب والقهر الغربي وهؤلاء المستفيدين بها ظالمون جائرون لهم ضحايا ومظلومين بالملايين والأمر يستحق الثورة وحتى في إطار إنصاف الفقراء والمحرومين وتحقيق العدل الاجتماعي فإن التراث الإسلامي غني بالنصوص والمواقف والرؤي والمناهج التي تجعل منه جذرًا ثقافيًا لأيديولوجية الثورة العالمية ثورة الفقراء والمطحونين والمحرومين **«ليس منا من بات شبعان وجاره جائع»** والجار هنا قد يكون فرد أو أسرة أو دولة أو قارة أو حتى كوكب..

من كان عنده فضل ظهر فليعد به علي من لا ظهر له، من كان عنده فضل مال.. أو فضل زاد أو ملبس.. إلخ فليعد به علي من لا مال له.. إلخ، وهي دعوة لتحقيق المجتمع اللاطبقي، ودعوة أيضًا للثورة علي هؤلاء الذين يمنعون ما زاد عن حاجتهم في حين يحتاج إليها الآخرون.

وعلي بن أبي طالب يقول: «**ما متع غني إلا بما حرم منه فقير**» أي أن تراكم المتعة والغني والمال يأتي من سرقة حقوق الفقراء سواء بسوء توزيع الثروة المتاحة - السرقة من المنبع - أو بأكل فائض قيمة عمل هؤلاء الفقراء بإعطائهم أقل من حقهم في عملهم وكدحهم، أو بتعطيلهم عن العمل أو الفساد أو الرشوة.. إلخ.

وأخيرا قول أبي ذر الغفاري رضي الله عنه: «**عجبت لمن لا يجد قوت يومه ثم لا يخرج علي الناس بسيفه**» وهو يؤكد هنا وجوب ومشروعية ثورة الفقراء والمحرومين وهكذا فالإسلام من حيث عالميته، ومن حيث كونه ثقافة مغايرة ومعادية للثقافة والحضارة الغربية، وبحكم نصوصه وتراثه الثوري عمومًا والدعوة إلي ثورة الفقراء والمحرومين خصوصًا يصلح كجذر أيديولوجي للثورة العالمية المنشودة.

ويبقي هنا أن يضطلع المسلمون بعبء الثورة العالمية كجنود لها، وكطليعة أيضًا لباقي المطحونين والمحرومين في العالم وأن يضطلع علماء الإسلام بتقديم الإسلام كأيديولوجية للثورة العالمية والأمر هنا ليس

تفضيلاً بلا مبرر للإسلام علي غيره، بل لأن الثقافات الأخري التي نحترمها ولا نريد القضاء عليها هي ثقافات إما غير ثورية أصلا، أو أنها غير قادرة من الناحية الفلسفية علي مواجهة ناجحة مع الحضارة الغربية وبالتالي مع آلة النهب والقهر الغربي.

إن الأمر ليس أكثر من قراءة علمية محايدة قراءة تقول بأن عدة قرون من الظلم ولقهر والفقر والنهب والبؤس علي يد الحضارة الغربية وآلتها الشيطانية ينبغي أن تنتهي ولن يكون ذلك إلا بالثورة التي يشارك فيها كل الضحايا وهذه الثورة تحتاج إلي جذر ثقافي وأيديولوجي لابد أن يكون عالميًا ومعاديًا للحضارة الغربية في نفس الوقت ويحمل تراثًا ثوريًا واضحًا، وليس هناك إلا الإسلام كدين وكحضارة وكأيديولوجية للثورة الذي يمكنه أن يكون هذا الجذر الثقافي للثورة العالمية المنشودة.

***

٣٥ - الانتصار للمظلومين فريضة إسلامية

الإسلام يحض المظلومين على عدم السكوت للظلم:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾(النساء: ٩٧).

ويحض المظلومين على الدفاع عن أنفسهم:

«**ما من مسلم يظلم مظلمة فيقاتل فيقتل إلا قتل شهيدًا**». حديث صحيح خرجه السيوطي ويحض على التصدي للظالمين: «**من رأى سلطانًا جائرًا مستحلاً لحرم الله ناكثا لعهد الله مخالفًا لسنة رسول الله يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان فلم يغير عليه بفعل أو بقول كان على الله أن يدخله مدخله**».

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضة إسلامية وهل يوجد منكر أكبر من الظلم، الإسلام يأمر بالانتصار للمظلومين والدفاع عنهم:

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا

وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾(الشوري: ٣٩-٤٢).

وقال رسول الله ﷺ: «ما من مسلم يخذل مسلمًا في موضع ينتهك فيه حرمته وينتقص فيه من عرضه إلا خذله الله في موضع يحب فيه نصرته، وما من امرئ مسلم ينصر مسلمًا في موضع ينتقص فيه من عرضه وينتهك فيه من حرمته إلا نصره الله في مواطن يحب فيها نصرته».

كما قال ﷺ: «لا يقفن أحدكم موقفًا يقتل فيه رجل ظلمًا فإن اللعنة تنزل على كل من حضر حين لم يدفعوا عنه، ولا يقفن أحدكم موقفًا يضرب فيه رجل ظلمًا فإن اللعنة تنزل على من حضره حين لم يدفعوا عنه».

الدفاع عن المظلومين فريضة إسلامية، المظلومين سياسيا أو اقتصاديا أو اجتماعيا، فردا أو جماعة أو أمة أو طائفة وفي عالم يسوده الاستكبار وتمارس دولا وحكومات وجماعات بشرية وأفرادًا الظلم على الآخرين، فإن الدفاع عن المظلومين يصبح رقمًا مهمًا في معادلة المشروع الحضاري الإسلامي والله تعالي شرع الجهاد وفرضه على المسلمين للدفاع عن المظلومين مسلمين أو غير مسلمين، في كل زمان ومكان ورفع الظلم عن البشر أيًا كان دينهم أو جنسهم أو لونهم ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ

ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ﴾(البقرة: ١٩٣).

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ﴾(النساء: ٧٥).

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾(الشورى: ٣٩).

وفيما يرويه الرسول ﷺ عن رب العزة **«وعزتي وجلالي لأنتقمن من الظالم في عاجله أو آجله، وأنتقمن ممن رأى مظلومًا فقدر أن ينصره فلم يفعل»**.

ويقول: **«ما من مسلم يخذل مسلما فى موضع ينتهك فيه حرمته وينتقص فيه من عرضه إلا خذله الله فى موضع يحب فيه نصرته، وما من امرئ مسلم ينصر مسلما فى موضع ينتقص فيه من عرضه وينتهك فيه من حرمته إلا نصره الله فى مواطن يحب فيها نصرته»**.

ويقول: **«من رأي سلطانًا جائرًا مستحلاً لحرم الله ناكثًا لعهد الله مخالفًا لسنة رسول الله ﷺ يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان فلم يغير عليه بفعل أو بقول كان على الله أن يدخله مدخله»**.

ويقول: **«إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه»**.

***

٤٤- الحركة الإسلامية

رؤية نقدية هل هي شعب الله المختار؟

نحن نؤمن بأن مستقبل هذه الأمة، بل مستقبل العالم كله مرتبط بالإسلام والحركة الإسلامية، فالإسلام هو وجدان الأمة ومحركها، وهو دينها وثقافتها وحضارتها، ولن تتحرك تلك الأمة وبالتالي تواجه التحديات أوتتقدم أو تخرج من أزمتها الطاحنة، إلا بالإسلام كدين، وكثقافة وكحضارة وكأيديولوجية أيضا، وإذا كان الإسلام كذلك، فإن الحركة الإسلامية من المفروض أن تكون طليعة هذه الأمة والمعبر عن وجدانها، وقاطرة للتغيير وخميرة النهضة، وبالتالي فإن برنامجًا صحيحًا واستراتيجية صحيحة، وتكتيكا صحيحا ضرورة من ضرورات تلك الحركة، وضرورة من أجل مستقبل الأمة، وكذلك فإن الإسلام كمنظومة فكرية وسياسية واجتماعية قادر على حل مشاكل العالم، وقادر على إنقاذ المهمشين والمستضعفين وقادر على وقف الاستكبار والظلم في العالم، وهو البديل المرشح الآن بعد فشل الماركسية لأن يكون أيديولوجية الفقراء والمستضعفين في مواجهة الاستكبار العالمي.

ولأن الأمر كذلك فإن الحركة الإسلامية تحتاج الآن بالتحديد لنوع من النقد والنقد الذاتي، يمارسه أبناء الحركة فرادي أو مجتمعين، أو الاستفادة من التجارب والخبرات وطرح الأسئلة الصريحة والقاسية والبحث عن الخلل وتحديده وعلاجه.

ومن هذه الأسئلة.. هل وصلت الحركة الإسلامية إلى طريق مسدود ولماذا لم تصل إلى أهدافها بعد كل هذا الزمان وكل هذه الجهود والتضحيات؟ هل كان الخلل في المنهج أو في الممارسة، أو في عدم كفاءة القيادات؟ وهل كانت الأطروحة الفكرية نفسها صحيحة؟، ولابد أن نقول هنا إن ما سوف نقدمه من نقد أو تحليل في هذا الإطار هو نوع من الاجتهاد بمعني أنه رؤية فيها صواب وخطأ والعصمة لرسول الله ﷺ وحده، ويجب أن نقول هنا أيضا، إن التركيز على الأخطاء والخطايا لايعني أن الحركة لم يكن لها منجزات أو إيجابيات، بل لها الكثير بالطبع، ولا يعني أيضا أن أسباب الفشل كانت فقط بسبب العوامل الداخلية ولكن أيضا كان هناك عوامل خارجية بعضها عالمي وبعضها محلي من مؤامرات ومطاردات وتضييق وغيرها، ولكن مع كل قسوة ذلك، فإننا نري أن لا حركة هناك تهزم من الخارج مهما كانت التحديات، بل تأتي الهزائم عادة من الخلل الداخلي.

سنحاول الإجابة عن السؤال المطروح بقوة الآن على الساحة، وهو

هل وصلت الحركة الإسلامية - وتحديدًا في مصر - إلى طريق مسدود؟، ونجيب بصراحة نعم لأن الحركة بكل تياراتها لم تعد قادرة على تطوير نفسها أو معاودة الانتشار أو الوصول إلى أي نتائج استراتيجية، بل بعضها اعترف بخطئه في مجمل ممارساته السابقة، وهو اعتراف يدل على الشجاعة، ويدل على ممارسة المراجعة والنقد الذاتي الجماعي، وهو أمر محمود بالطبع، ولكن الطريقة الفكرية التي تمت بها المراجعة وكذلك الآراء التي وصلت إليها تلك المجموعة لمواجهة المستقبل والحاضر تعبر في جانب منها عن نفس الأزمة الفكرية، أي أنها قرأت الواقع خطأ مرتين، وليس هنا مجال مناقشة آرائها الجديدة نقطة نقطة، ففيها الكثير من المنطلقات الصحيحة والبديهيات التي كانت غائبة ولكنها افتقرت إلى تحديد الخطأ المنهجي الذي هو أصل الفشل والتخبط في كل الحركات والممارسات، ومن ثم وقعت في أخطاء فادحة أخري عند تطبيق مفاهيمها الجديدة على الواقع الحالي والمستقبل.

والخطأ المنهجي إذا ما تم وضع اليد عليه، فسوف يريحنا كثيرًا من القضايا الجانبية، فالعيب لم يكن في مشروعية الحركة كما يزعم البعض، ولا في عدم كفاءة القادة أو عدم إخلاصهم أو انتهازية بعضهم، ولا في التقاعس عن تقديم التضحيات، ولكنه كان خطأ بنيويا، ذلك أن الحركة لم تسأل نفسها في البداية، من نحن، وماذا نريد، وعلي أي أرضية نتحرك.

هل نحن دين جديد، أم فرقة دينية جديدة، ماهي العلاقة الصحيحة مع الأمة والمجتمع، أو سألت نفسها أسئلة من ذلك النوع وأجابت إجابة خاطئة عليها، ولا شك أن هذا الخلل البنيوي لم يؤد فقط إلى الوصول إلى طريق مسدود، بل أدي إلى ظهور جماعات وتيارات وممارسات وأفكار متطرفة، ذلك أن عدم اتخاذ الموقف الصحيح سوف يؤدي إلى ظهور انحرافات على الجانبين تهاون – تشدد.

وبديهي أن الحركة الإسلامية ليست دينا جديدا، بل هي ملتزمة بما استقر عليه المجموع من عقائد وقضايا وأفكار، وبديهي أن الحركة الإسلامية ليست فرقة دينية جديدة، فالواقع لا يحتمل ظهور فرق دينية جديدة، وبالتالي فهي ليست متميزة عن الأمة لا في العقائد ولا في الأفكار، وإن كان لبعض العلماء داخل الحركة أو خارجها اعتراضات على بعض القضايا، فصحف الحركة وأدبياتها واجتماعياتها ليست مجالا لمناقشة هذا الخلاف، بل الخلاف على القضايا العلمية يكون داخل معاهد العلم ومن خلال العلماء، والحركة لا علاقة لها بهذا من قريب أو بعيد، وهذا يدفعنا إلى الإجابة عن السؤال: من نحن؟ والمفروض أننا جزء من هذه الأمة، قررنا تحمل تضحيات أكبر ومسئوليات أكبر وليس وجاهة أوتصدرًا أو قيادة وبالتالي فنحن نلتزم بأن نكون مجرد طليعة للأمة لخوض تحدياتها الاستعمار – الصهيونية – التخلف – الاستبداد السياسي – الظلم الطبقي

- التعصب.. إلخ، وليس أن نكون بديلاً عن الأمة، لأن الأمة - كل الأمة - مسؤولة عن خوض المعارك والتحديات.

أي أننا خلايا حية تعمل على تنشيط باقي خلايا الجسد، وليس بمعزل عنه أو بديلاً عنه، لأن ذلك يعني أن نتحول إلى وباء أو سرطان ونضر مهما كانت نوايانا حسنة.

وهذا يطرح بدوره فكرة تسمية الجماعة وهو من وجهة نظري مسمي يعبر عن الخلل البنيوي المذكور، حتى لو تم تخفيف الأمر بأنها ليست جماعة المسلمين بل هي جماعة من المسلمين، إننا مرة أخرى مجرد طليعة، أو قاطرة أو حتى حزب سياسي ولا عيب في ذلك، لنا أطروحة بشرية تستند إلى الإسلام كمرجعية، ولسنا شعب الله المختار، ولا نمتاز عن الناس بشيء، ونحن مجرد حلقة من حلقات النضال والكفاح سبقتها حلقات وتتبعها حلقات، بمعني أننا لا نمتلك كل الحقيقة، ولسنا الذين اخترعنا الإسلام، ولا حتى الحركة الإسلامية المعاصرة، فالحركة الإسلامية في رأيي هي كل الحركات التي حاولت أن تقود الأمة لمواجهة التحديات الخارجية والداخلية، إنهاعبدالكريم الخطابي، وعبدالقادر الجزائري وعمر المختار، وعمر مكرم ومحمد كريم والنديم ومصطفي كامل ومحمد فريد وأحمد حسين وعز الدين القسام وكل من قاوم الاستعمار والصهيونية أو الاستبداد، نحن إذن مجرد حلقة سبقتها

حلقات وتتبعها حلقات والوقوف عند حلقة واحدة هو نوع من الجهل والتعصب والجمود، وهو خطأ وخطر على كل مستوي.

كلمة الجماعة إذن، والممارسات المرتبطة بالجماعة - شكلت نوعا من العزلة والانعزال، وطرحت نوعا من التكفير السلبي، أو على الأقل تمييز من هم بداخل الصف عمن هم ليسوا به، أو نوعا من التعامل الخاص بين أفراد الجماعة الواحدة، وبما أن الإسلام ملك للأمة كلها، فهذا نوع من الاحتكار والتكفير الصامت غير المعلن!! وهو أمر خطير جدًا شكلاً ومضمونا.

فكرة الجماعة، والصف، والتنظيم قادت إلى إشكاليات أخرى، فمكاسب الجماعة أو الصف أو التنظيم يجب المحافظة عليها وعدم إهدارها، حتى لو كان ثمن ذلك التخلي عن مطالب الجماهير، أو تأييد موقف يضر بالحريات أو يضر بالفقراء أو يمثل موقفا صامتا أو مراوغاً تجاه قضية ما، وبديهي أن الجماعة أو الصف أو التنظيم ليست غاية بل هي وسيلة لتحقيق أهداف وغايات وإذا تعارضت الوسيلة مع الغاية يمكن التخلي عن الوسيلة وبالتالي لو كانت المسألة تجري على أساس أننا مجرد حزب سياسي يري رؤية وبرنامجا معينا في وقت معين يمكن أن يتغير ويتطور، ويمكن حل الحزب وعدم التمسك به إذا كان استمراره يتعارض مع المواقف المبدئية والأخلاقية، لكان الأمر أسهل كثيرًا، ولعل هذا يفتح الحديث عن الخطأ الخطير الذي وقعت فيه الحركة الإسلامية في مصر

حين لجأت إلى أسلوبي العنف - التربية ولا شك أن الأسلوبين خاطئان، وغير ملائمين لأوضاع مصر الاجتماعية والسياسية، والصحيح أن هناك وسطًا بين هذين، وهو النضال السياسي، ولعل هذا يطرح تحليل برامج الجماعات - التي ركزت على قضايا ليست محل اهتمام أي حركة صحيحة باعتبارها ليست دينا جديدًا ولا فرقة دينية جديدة، ولا شعب الله المختار، فالتركيز على فكرة الدعوة مثلاً، هو تفكير غير صحيح فالدعوة تكون لغير المسلمين - هل ندعو المجتمعات الإسلامية إلى الإسلام مثلا، ولكن الصحيح هو النضال من أجل إيقاظ النائمين وتحريك السلبيين والنضال من أجل توسيع الحريات، والنضال من أجل رفع الظلم الاقتصادي أو مواجهة الفساد وعدم تكافؤ الفرص، أو مواجهة الكيان الصهيوني أو مواجهة التخلف والجهل، أو حتى طرح أنفسنا بالتحالف مع القوي المناهضة للعولمة في العالم كرأس رمح في مواجهة الاستكبار الأمريكي، وطرح الإسلام كمنظومة أو كأيديولوجية للفقراء والمستضعفين في العالم لمواجهة المشروع الأمريكي الصهيوني العولمي وتحالف الرأسماليين والعسكر خاصة بعد أحداث ١١ سبتمبر.

الخطأ المنهجي الآخر - هو عدم إدراك الحركات الإسلامية مسألة الهزيمة الحضارية فلا شك أننا كأمة وكحضارة مهزومين أمام الحضارة الغربية، وفي غضون القرنين الأخيرين على الأقل تم ذلك وتكرس،

وأمريكا وإسرائيل والغرب يمتلكون تفوقا علميا وعسكريا واقتصاديا وسياسيا علينا، ولابد أن ندرك هذا المتغير الخطير في حركتنا وكذلك في طريقة فهمنا للأمور وفي مطالبنا السياسية والاجتماعية وعلاقتنا بالحكومات فلسنا في عصر الدولة العباسية مثلاً، حيث يقول الخليفة للسحابة التي تمر أمامه: أمطري حيث شئت فسوف يأتيني خراجك، فالذي حدث أننا كأمة وحضارة مررنا بعدد من المراحل، فالمنحني الحضاري لنا صعد، ثم ثبت ثم بدأ في النزول، ولابد من الاعتراف بأننا في حالة نزول حضاري الآن والسيادة في العالم ليست لنا، واتخاذ قرار معين يمكن أن يؤدي إلى ضربنا بصواريخ كروز مثلاً أو التعرض لعدوان على غرار العراق وأفغانستان وبالتالي فيدنا ليست مطلقة في كل شيء.

الصحيح أن هناك تداخلات دولية وإقليمية لا فكاك منها، وأنه مهماكانت قوتنا فأعداؤنا أقوي بمراحل وبالتالي يجب عدم التركيز على فكرة الحرب النظامية بل المواجهة بالإنسان سلاح الاستشهاد على مستوي التحديات الخارجية، وعلي مستوي محاولة النهضة يجب أن نعمل على عدة مراحل، أي يجب عدم حرق المراحل يجب أن نعترف أولا بأننا في حالة نزول حضاري، ينبغي تقليل عجلة النزول، ثم تقليل سرعة النزول، ثم إيقاف النزول، ثم إحداث انقلاب في المنحني باتجاه الصعود، ثم الصعود، وهذا يقتضي بالطبع مجهودًا جبارًا لابد من بذله وإلا فسوف

تهدر طاقاتنا دائما ونعود كل مرة من حيث بدأنا.

يجب أن نحدث نوعًا من التراكم المعرفي والخبرة المنقولة دائمًا، وأن نضع في اعتبارنا أننا كحركة في مرحلة ما وبمسمي ما لا تستطيع ولا ينبغي لها أن تحاول حل كل الإشكاليات وأنها ستحقق كل شيء، بل تعمل علي إحداث نوع من التراكم الإيجابي والتقدم خطوة أو خطوات حتي لا تضيع الجهود، وهذا يقتضي نوعًا من التواضع وطول النفس، وهذا يفسر نجاح بعض الحركات التي حددت لنفسها نوعًا معينًا من النشاط الاجتماعي مثلا فقدمت إسهاما إيجابيا، في حين أن الحركات التي وصفت نفسها بأنها كل شيء: حركة سياسية وعقائدية واجتماعية ومالية وسلفية ومستقبلية وصوفية وعسكرية.. إلخ فإنها تقريبا فشلت في كل شيء مع ثمن باهظ وهائل بلا مبرر.

***

٤٨ - مقدمة في فقه الإقلاع

على حد علمي فإن الأستاذ مالك بن نبي «المفكر الجزائري المعروف» هو أول من استخدم مصطلح «الإقلاع الحضاري»، وأزعم أنني أول من صك مصطلح «فقه الإقلاع»، وهذا المصطلح لا يعبر عن نوع من الفذلكة اللفظية بقدر ما يعبر عن وصف حالة معينة وتحديد أبعادها ومن ثم وضع الحلول الصحيحة والملائمة للخروج منها.. وكان ذلك في كتاب - لم ينشر بعد - تحت عنوان «مقدمات في فقه الإقلاع».

من الناحية العلمية - ووفقا لعلم أصول الفقه - فإن الاجتهادات الإسلامية تستند أساسا إلى نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وكذلك الواقع الموضوعي.. وبديهي أن النص الديني ثابت والواقع الموضوعي متغير. ومن هنا فإن الاجتهاد في أحد تعريفاته هو التعامل مع الواقع الموضوعي المتغير استنادا إلى النص الثابت، وبديهي أيضا أن هناك الكثير من المدارس الفقهية والفكرية والمنهجية، ولكن كلها تدرك أن الفقه ليس أحكاما في الفراغ، ولكن هذه الأحكام تتغير بتغير الزمان والمكان، وهذه أصبحت مقولة مقررة في علم أصول الفقه، والإمام الشافعي مثلا

غير اجتهاداته مثلا في مصر عنها في العراق - تغير المكان - وابن عمر رضي الله عنهما أفتى في عام بغير ما أفتى في العام الذي سبقه في نفس المسألة - تغير الزمان - وهكذا فإنه من الناحية العلمية - وفقا لعلم أصول الفقه - فإن الفتوي تختلف من زمن إلى زمن ومن مكان إلى مكان.

كان هذا بالطبع في إطار ظرف عام حضاري وسياسي وثقافي ثابت وله سمات معينة.

أما الظرف العام الآن - الحضاري والسياسي والثقافي فهو مختلف كما ونوعا، وإذا كان الاختلاف الكمي يبرر تغيير الفتوي، فإن الاختلاف النوعي يقتضي إعادة النظر في الأسس والمبادئ العامة وعلم الأصول ذاته خاصة أننا الآن في حالة حضارية وسياسية وثقافية لم يسبق لأمتنا أن مرت بها من قبل - لا في زمن النبوة ولا في زمن السيادة الحضارية الإسلامية على العالم - ومن ثم فإن من الصعب القياس على حالات سابقة. هذا بالطبع يقتضي أولا تحديد الحالة الحضارية والسياسية والثقافية التي نحن بصددها ومن ثم بناء منظومة فقهية واجتهاد مكافئ يضعها في اعتباره.

نحن الآن في حالة هزيمة حضارية.. نحن في حالة خضوع واختراق سياسي وثقافي وعسكري واقتصادي أمام الغرب. نحن الآن لسنا في حالة سيادة حضارية أو حتى تعادل حضاري مع الآخرين ومع الغرب بالتحديد، ومنذ عدة قرون فإن التفوق الحضاري الغربي علينا

أمر حقيقي يجب الاعتراف به أولا ثم محاولة الإقلاع منه ثانيا.. بكلمة أخرى فإن الخليفة العباس مثلا كان يقول للسحابة في السماء أمطري حيث شئت فسوف يأتيني خراجك.. وهذا غير موجود الآن، بل إن الرئيس الأمريكي مثلا هو من يستطيع أن يقول شيئا شبيها بهذا، المنحني الحضاري الإسلامي صعد ثم ثبت وكان متفوقا على الآخرين أي كانت هناك حالة سيادة حضارية إسلامية ثم حالة تعادل حضاري، ولكن هذا المنحني بدأ نزوله منذ عدة قرون في حين صعد المنحني الحضاري الغربي ومن ثم أصبحنا في حالة هزيمة حضارية، والفقه الإسلامي المعروف، والذي أنتجه جهد واجتهاد علماء كبار وعظماء تم كله إما في حالة الصعود الحضاري والسيادة الحضارية الإسلامية، أو في حالة التعادل الحضاري والاستقلال الحضاري تجاه الآخرين، وكان هذا الفقه عظيما ومناسبا ومستجيبا ومدركا لظرف الاستقلال الحضاري الذي ظهر في إطاره، ويعد من أردع وأخصب تجارب الفكر عموما والديني منه خصوصا، ولكن هذه الحالة الحضارية لم تعد موجودة الآن كما وكيفا، نحن الآن في حالة هزيمة حضارية، وفي حالة اختراق وهيمنة غربية وأمام تحديات استعمارية وصهيونية ونعاني من كثير من الأمراض الاجتماعية والسياسية والأخلاقية، وفي حالة تفكك وتفسخ يخالف حالة الوحدة تحت راية الخلافة التي كنا عليها، وفي حالة استبداد سياسي وتهميش وسلبية..

إلخ، وعلينا أن نراعي هذا كله في تقديم منظومة فقهية جديدة مختلفة كما ونوعا، ومستجيبة للطرف الموضوعي، وآخذة في اعتبارها الحالة التي نحن بصددها، ونحن نطلق على ذلك مصطلح «فقه الإقلاع».

نحن نريد إيقاف المنحني النازل أو بلغة الرياضيات تقليل عجلة النزول، ثم تقليل سرعة النزول، ثم إيقاف سرعة النزول، ثم عمل انقلاب في المنحني ومن ثم الصعود من جديد، وهذه كلها مراحل لا يمكن علميا ولا موضوعيا تجاهلها، والاستناد إلى المناهج القديمة والفقه القديم التي والذي كان عظيما في زمنه تؤدي إلى كوارث بل تؤدي إلى خسائر وصدامات وقلاقل وإهدار طاقات بلا داع، وسوف تكرس الحالة ولن تحلها، وفي الحقيقة فإن هذه النقطة هي سبب فشل كل مشروعات النهضة ومحاولات الإصلاح بل وفشل كل الحركات السياسية ومنها الإسلامية، في تحقيق أي أهداف إلى الأمام، لأنها جميعا تجاهلت هذا المتغير النوعي، وبديهي أن من المعروف علميا أن تحقيق هذا الإنجاز بمعني تقليل سرعة النزول ثم إيقافه ثم عمل إنقلاب في المنحني ومن ثم الصعود تحتاج إلى طاقة عالية جدا، ليست طاقة كمية فقط ولا حسابية فقط، فمن المعروف مثلا أن الوصول من الصفر إلى واحد يحتاج إلى طاقة أكبر من الارتفاع من ١ إلى ٢ أو الارتفاع من ٤ إلى ٥ مثلا وتسمي طاقة الوضع.

نحن إذن نحتاج إلى اجتهادات شديدة المرونة وشديدة التميز وجريئة تكافئ كما ونوعا هذه الحالة اجتهادات تحقق الإقلاع الحضاري المنشود، نحن في حالة جد مختلفة، حالة الهزيمة الحضارية حالة لم تمر علينا من قبل، نحن في حالة جديدة تحتاج فقه جديد هو فقه الإقلاع.

ومن ناحيتنا فإن الفقه الجديد يجب أن يعمل على مستويين، مستوى الخطاب الداخلي للأمة لإخراجها من حالة السلبية ومواجهة الاستبداد ومقاومة الغزو الأجنبي، مع عدم القفز على المراحل أو الدخول في برامج ومطالب متصورين أننا لازلنا في العصر العباسي، والاعتماد هنا ليس على الحكومات بل الشعوب، والحرب الشعبية بدلا من الحرب النظامية وسلاح الاستشهاد.. إلخ.

ونحتاج إلى خطاب خارجي يركز على المرونة وتقديم الجانب المضيء للحضارة الإسلامية باعتبارها حضارية غير عنصرية وتحقق المساواة لكل البشر وتصلح أن تكون جذرا ثقافيا للفقراء والمستضعفين في ثورتهم ضد الرأسمالية والعولمة، وتحويل الإسلام إلى رأس رمح في مواجهة المشروع الأمريكي الصهيوني.. وكلها أمور طبعا تحتاج إلى جهد أكثر من عالم وأكثر من جهة علمية وسياسية وفكرية، وهذه دعوة يقدمها فقه الإقلاع للجميع أطروحتهم وأفكارهم واجتهاداتهم بهذا الصدد.

***

٤٩ - من عبيد إلى أمراء دراسة

في صعود المستضعفين في صدر الإسلام

تشكل تجربة صعود المستضعفين في صدر الإسلام، نموذجًا فذًا لعملية ثورية كبري وحراك اجتماعي لا نظير له، منغم برنين صاخب ولكنه عذب رغم أنه يبدو للوهلة الأولي صامتًا، وربما كان هذا الصمت الملحوظ علامة على عبقرية الممارسة، التي حولت هذه التجربة الفذة إلى شيء طبيعي حتى لا تكاد تحسه أو تسمعه حتى كان الأمر لا يبدو ملفتًا للنظر من شدة كونه بديهية لا تلفت نظر الرجال الذين مارسوه.

ولا شك أن تجربة الإسلام الثرية في هذا الصدد على مستوي النص والتطبيق يمكن أن تصبح جذرًا ثقافيًا ومعرفيًا لكل ثورة تحريرية ترفع راية المستضعفين في مواجهة مؤسسات الاستكبار.

أي تجربة عظيمة تلك التي ترفع سلمان الفارسي الذي كان عبدًا عند أحد يهود المدينة فيصبح أميرا على الكوفة أهم إمارات الدولة الإسلامية في ذلك الوقت من خلافة عمر بن الخطاب.

هذا العبد الذي يتسابق المهاجرون والأنصار بل ورسول الله ﷺ لينسبه كل إلى نفسه، ففي يوم الخندق وقف الأنصار يقولون سلمان منا ووقف المهاجرون يقولون بل سلمان منا، فيسمعهم الرسول فيقول ﷺ **«سلمان منا آل البيت»**.

والذي يصبح للمسلمين معلمًا ومرشدًا وحكيمًا فيقول عنه الرسول ﷺ: **«لقد أشبع سلمان علمًا»**.

ويلقبه على بن أبي طالب كرم الله وجهه بلقمان الحكيم، فقد سئل على عنه بعد موته فقال «ذاك امرؤ منا وإلينا أهل البيت من لكم بمثل لقمان الحكيم». وهكذا فعلي يفخر بانتساب سلمان إلى أهل البيت النبوي، بل ويباهي به سائليه.

إنه سلمان الفارسي، الذي كان ذات يوم عبدًا، فأصبح بالإسلام رجلاً يخرج الخليفة بنفسه لاستقباله فقد جاء سلمان إلى المدينة زائرًا في خلافة عمر ابن الخطاب فجمع عمر أصحابه وقال لهم: هيا بنا نخرج لاستقبال سلمان.

وأي تجربة تصنع من عبدالله بن مسعود، ذلك العبد الذي يرعي الغنم في مكة لعقبة بن أبي معيط، ذلك الرجل الضعيف الجسم النحيف، القصير القامة، الفقير الأجير.. تصنع منه هذا الرجل الذي يكون أول من يجرؤ على إسماع قريش بكل وجهائها وزعمائها آيات القرآن علنًا وبصوت

مرتفع.. فيتفوق بذلك على كل المسلمين الذين أسلموا في تلك الفترة من حياة الدعوة الإسلامية في بواكيرها، والذين كان منهم القوي والشريف والغني.. هذا الرجل - عبدالله بن مسعود - يصبح يومًا وزيرًا في الكوفة مع أميرها في ذلك الوقت سلمان الفارسي في خلافة عمر بن الخطاب.

ويصبح بعد الإسلام من أفقه المسلمين وأكثرهم علمًا، بل وأحسنهم تلاوة للقرآن الكريم، فيتعلم منه كبار الصحابة كيف يتلون القرآن، ويتعلمون منه أيضًا فقه الدين ويصبح مرجعًا لهم في أمور الدين.

يقول عنه الرسول ﷺ: **«من أحب أن يقرأ القرآن.. كما أنزل، فليقرأه على قراءة ابن أم عبد»**-أي عبدالله بن مسعود، والذي يطيب للرسول ﷺ أن يستمع إلى القرآن من فمه.. وهو الذي عليه أنزل، ويقول عمر بن الخطاب «لقد ملئ فقها». ويقول عنه أبو موسى الأشعري: «لا تسألونا عن شيء ما دام هذا الحبر فيكم».

اجتمع نفر من الصحابة يومًا عند على بن أبي طالب كرم الله وجهه فقالوا له: «يا أمير المؤمنين، ما رأينا رجلاً كان أحسن خُلقاً ولا أرفق تعليمًا ولا أحسن مجالسة، ولا أشد ورعًا من عبدالله بن مسعود»، فيقول على «نشدتكم الله أهو صدق من قلوبكم؟ قالوا: نعم قال: اللهم إني أشهدك إني أقول فيه مثلما قالوا وأفضل.. لقد قرأ القرآن فأحل حلاله، وحرم حرامه، فقيه في الدين عالم بالسنة».

وهو دون غيره من المسلمين يلقب بصاحب السواد أي موضع سر الرسول ﷺ وصاحب نجواه.

ثم هو الذي يقول عنه الرسول ﷺ: **«لو كنت مؤمّرًا أحدًا دون شوري المسلمين، لأمرت ابن أم عبد»**، بل ويجعله إمامًا للهدي لكل الصحابة فيقول عنه **«تمسكوا بعهد ابن أم عبد»** أي تجربة تلك التي صنعت من هذا العبد كل هذا الذي ذكرناه بل ويعرف الجميع له الفضل، ويعرف أيضًا عن نفسه بلا عقد أو حساسيات، فيقول هو عن نفسه «والله ما نزل من القرآن شيء، إلا وأنا أعلم في أي شيء نزل، وما أحد أعلم بكتاب الله مني، ولو أعلم أحدًا تمتطي إليه الإبل أعلم مني بكتاب الله لأتيته وما أنا بخيركم».

من عبد إلى وزير..

من عبد إلى معلم ومدرسة في الفقه ومنارة هداية للمسلمين.

من عبد إلى صاحب السواد.

من عبد إلى أعلم الناس بكتاب الله قراءة وتفسيرًا وأسباب نزول، فقيه في الدين عالم بالسنة.. من عبد إلى إمام لأجيال بعد أجيال إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

أي تجربة تلك التي صنعت من سالم مولي أبي حذيفة.. الذي لا يعرف أحد اسم أبيه ولا هو نفسه صنعت منه إمامًا للمسلمين المهاجرين

من مكة إلي المدينة طوال صلاتهم في مسجد قباء وفيهم من فيهم من الأشراف والأغنياء.. هذا الذي كان عبدًا ذات يوم عند أبي حذيفة فيسلما معًا ويعتقه أبو حذيفة ثم يزوجه بنت أخيه فاطمة بنت الوليد بن عتبة.

بل ويتحول إلي مصدر فخر للرسول ﷺ، وفخر بالتالي لكل مسلم إلي يوم القيامة أن يكون من نفس الأمة التي منها سالم مولي أبي حذيفة الذي لا يعرف أحدًا اسم أبيه فيقول عنه الرسول ﷺ: «**الحمدلله الذي جعل في أمتي مثلك**».

هذا الذي كان عبدًا يومًا في مكة، وكان فيها خالد بن الوليد سيدًا ابن سيد هو نفسه الذي يقف أمامه خالد بن الوليد متهمًا يسمع قائمة أخطائه من سالم أثناء الخروج معه في سرية توجهت إلي بعض القبائل العربية بالقرب من مكة بعد الفتح وارتكب خالد فيها بعض الأخطاء، وكان قائدًا لها فإذا بسالم يواجهه بتلك الأخطاء دون خجل أو حساسية.

أي تجربة فريدة تلك التي صنعت من صهيب الرومي، الذي كان عبدًا في مكة ذات يوم، هو نفسه الذي يوصي عمر بن الخطاب قبيل موته بعد طعنه بالخنجر علي يد أبي لؤلؤة المجوسي، يوصي بأن يكون صهيبًا هو من يؤم المسلمين في الصلاة حتي يتم اختيار خليفة جديد، ويظل صهيب يفعل ذلك ثلاثة أيام حتي تم اختيار عثمان بن عفان خليفة للمسلمين. بل ويوصي عمر بأن يكون صهيب مراقبًا لأعمال الستة الذين أوكل إليهم

أمر اختيار الخليفة من بينهم، وبينهم أكبر زعماء المسلمين في ذلك الوقت.

وهو الذي ينزل فيه الآية الكريمة: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ ﴾ لم يشهد رسول الله ﷺ مشهدًا قط، إلا كنت حاضره ولم يبايع بيعة قط إلا كنت حاضرها، ولا غزا غزوة قط أول الزمان أو آخره، إلا كنت فيها عن يمينه أو شماله، وما خاف المسلمون أمامهم قط إلا كنت أمامهم ولا خافوا وراءهم إلا كنت وراءهم، وما جعلت رسول الله ﷺ بيني وبين العدو أبدًا حتي لقي ربه».

وأي تجربة متميزة تلك التي تجعل بلالًا العبد الحبشي الأسود هو الذي يؤذن للصلاة، وهو شرف كان يتمناه كل الصحابة الكبار والصغار، بل وهو من يمسك به الرسول من ناحية، وبأسامة بن زيد بن حارثة من ناحية أخري ويدخل بهما الكعبة يوم فتح مكة، وكأنه ﷺ يريد أن يؤكد تجربة الإسلام العظيمة في صعود المستضعفين، لأنه يوم النصر الأكبر لا يدخل الكعبة وعن يمينه عمر بن الخطاب أو أبوبكر الصديق، أو خالد بن الوليد أو عثمان بن عفان أو عبدالرحمن بن عوف أو حتي العباس بن عبدالمطلب بل يمسك ببلال العبد الحبشي الأسود الذي كان يومًا عبدًا عند أمية بن خلف من ناحية، ومن الناحية الأخري أسامة بن زيد بن حارثة أي ابن عبد آخر كان ذات يوم عبدًا عند السيدة خديجة فوهبته لمحمد فأعتقه.

ولعل وجهاء مكة وكل أهلها قد فهموا هذا المعني نفسه عندما أمر

الرسول ﷺ بلالاً بالصعود فوق أعلى مكان في الكعبة وأن يؤذن، فوقف ثلاثة من زعمائها هم أبوسفيان بن حرب - وكان قد أسلم منذ ساعات - وعتاب بن أسيد والحارث بن هشام وكانا لم يسلما بعد يتحدثون فيقول عتاب بن أسيد وعينه على بلال وهو يرفع الآذان ويعلن انتصار الحق.. لقد أكرم الله أسيدا ألا يكون حضر هذا فيسمع منه ما يغيظه.. وهكذا من عبد في مكة إلى صاحب إعلان نهاية الكفر فيها وشروق فجر جديد.. ويا له من شرف عظيم. بلال بن رباح من عبد في مكة إلى رجل يفخر به كل مسلم بل وأشهر من عرف بين أجيال المسلمين، بل وتقوم باسمه حركات ومؤسسات، بل ويندر أن تقابل مسلمًا عربيًا أو أعجميًا، أفريقي أو آسيوي، أوروبي أو أمريكي.. ولا يعرف بلالا.. سواء كان هذا المسلم رجلاً كبيرًا أو طفلاً صغيرًا، من الخواص أو من العوام.

هذه التجربة المنقطعة النظير - هي التي تصنع بن زيد بن حارثة هذا العبد لدي السيدة خديجة في مكة التي تهديه لزوجها محمد ﷺ فيحرره ويتبناه إلى أن ينزل قرآنا ينهي عادة التبني، هذا العبد ينزل فيه قرآن من فوق سبع سماوات.. ويصبح هو نفسه قائدا لجيش المسلمين بما فيه من كبار الصحابة ووجهاء القوم في غزوة مؤتة، ومن قبلها كان هو قائد أكثر من سرية وأميرًا للقوات الزاحفة إلى معارك الجموح، والفيصل، وحسمي وغيرها.

هذا العبد القصير الأسمر، أفطس الأنف هو نفسه «الذي لا يرسله الرسول ﷺ في جيش إلا أمره عليه ولو بقي حيًا بعد الرسول ﷺ لاستخلفه» كما تقول السيدة عائشة من عبد إلي أمير، بل ولو عاش بعد رسول الله لأوصي الرسول ﷺ به ليكن خليفة للمسلمين.

بل وابنه أسامة بن زيد بن حارثة، التي كانت أمه أيضا من العبيد «أم أيمن» وهو أيضا الأسود الأفطس الأنف مثل أبيه، هو وبلال من يدخلان بصحبة رسول الله ﷺ إلي الكعبة يوم الفتح.

وهو الذي يجعله الرسول ﷺ أميرًا لجيش أسامة أي لذلك الجيش الذي حمل اسمه حتي اليوم، هذا الجيش الذي كان فيه عمر وأبوبكر وغيرهما من كبار الصحابة جنودًا تحت إمرة القائد أسامة بن زيد الذي لم يكن قد تجاوز العشرين من عمره في ذلك الوقت.

هذه التجربة التي لا تستطيع الكلمات وصفها تستحق، هي من تجعل من خباب بن الأرت عبد أم أنمار، ذلك الحداد الذي كان يصنع السيوف في مكة هو من يعلم إخوانه المسلمين الأوائل آيات القرآن، وهو الذي كان يعلم فاطمة بنت الخطاب وزوجها سعيد بن زيد القرآن عندما داهمهم عمر بن الخطاب في القصة المعروفة لإسلام عمر.

ومن خلف تلك الممارسة الفذة.. كان النص قرآنا وسنة يؤكد هذه

التجربة بل يصفها بقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ ويقول الرسول ﷺ: **«ليس لعربي فضل على أعجمي إلا بالتقوي»**. ويقول ﷺ **«ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بالتقوى»**، ويقول ﷺ: **«كلكم لآدم وآدم من تراب»**، ومن خلف النص والممارسة كان المنهج الإسلامي بشموله وروعته مهيمنا.

***

٥٠ - النظام الاقتصادي في الإسلام

من القواعد العامة في الإسلام، أن المال مال الله والناس مستخلفون فيه، وألا تكون الأموال دولة بين لأغنياء ويحرم الإسلام كنز المال وعدم إنفاقه علي الفقراء والمحتاجين، ويكره طغيان الغني ويحرم الإسلام الربا أي الكسب بدون عمل أو مخاطر ويدعو إلي العمل، وتوفير العمل لكل قادر، إن أفضل الكسب، كسب الرجل من يده، وإن الله يحب العبد المحترف ويكره العبد البطال وكذا حرم الله الرشوة، وفي محاولتنا لدراسة الاقتصاد الإسلامي يجب أن نلاحظ ما يأتي:

أولا: إن الاقتصاد الإسلامي جزء من كل بمعني ارتباط الاقتصاد الإسلامي بمفاهيم وعقائد ونظم الإسلام، وعدم إمكان دراسته وتطبيقه بمعزل عنها.

ثانيا: الاقتصاد الإسلامي اقتصاد أخلاقي وواقعي في غاياته وفي طرقه كذلك.

ثالثا: الاقتصاد الإسلامي اقتصاد متميز عن المذاهب الرأسمالية والشيوعية

والاشتراكية وهو مخالف لها في أساسها النظري، مخالف لها في أساليبه، مخالف لها في غاياته وإن تشابهت بعض التفصيلات بين النظام الإسلامي وإحدي هذه النظم ليس إلا من قبيل تشابه عيون شخصين مثلاً دون أن تربطهما رابطة دم أو جنس.

رابعا: إن الاقتصاد الإسلامي لا يسمح بأي شكل من أشكال الاستغلال.

خامسا: إنه اقتصاد يحقق الحد المتوازن من الحياة الكريمة لكل فرد دون أن يضع عائقا دون الارتفاع إلي آفاق عليا دون ظلم أو استغلال.

سادسا: إنه اقتصاد يضع علي عاتق أولي الأمر إتاحة فرص العمل لكل قادر والحاجة لكل محتاج حتي لا يبقي فقير أو عاطل في المجتمع الإسلامي دون النظر إلي دينه أو جنسيته.

سابعا: إنه اقتصاد مخطط بمعني أنه يجعل للدولة الإشراف المركزي علي الإنتاج والتوزيع.

الهيكل العام للاقتصاد الإسلامي:

١- مبدأ الحرية الاقتصادية في نطاق محدود.

٢- مبدأ الملكية ذات الأشكال المتنوعة.

٣- مبدأ العدالة الاجتماعية.

مبدأ الملكية ذات الأشكال المتنوعة:

- في الرأسمالية: الملكية الخاصة هي المبدأ العام، والملكية العامة استثناء لظروف قاهرة.
- في الاشتراكية: الملكية العامة هي المبدأ العام، والملكية الخاصة استثناء لظروف قاهرة.
- أما الإسلام: فإنه يسمح بملكيات ذات أشكال متنوعة وليس لإحداها صفة المبدأ العام والآخريات استثناء بل بوصفها تعبر عن تصميم مذهبي أصيل قائم علي أسس مذهبية ثابتة وموضوعة داخل إطارها.
- الملكية العامة: وهي عامة لمجموع المسلمين مثل الأراضي العامرة بشريًا حال الفتح الإسلامي «الأراضي الخراجية».
- ملكية الدولة: مثل الأنفال «كل الثروات الطبيعية من غابات ومعادن».
- ملكية خاصة: تكتسب فقط عن طريق العمل الاستثماري بما لا يهدد التوازن العام، مع ملاحظة أن الملكية الخاصة ذات مجال ضيق ويترتب عليها واجبات محددة تجاه الله وتجاه الجماعة، والملكية الخاصة وكالة عن الله الذي استخلف الجماعة في الثروة، الملكية الخاصة أداة وليست غاية في ذاتها وليست معيارًا للكرامة أو الفضل في المجتمع.

مبدأ الحرية الاقتصادية في نطاق محدد:

الإسلام لا يصادر الحرية الاقتصادية تمامًا كما تفعل الاشتراكية، كما أنه لا يتركها بدون حدود كما يملي النظام الرأسمالي.

ولكن الإسلام لا يعترف بالحرية الاقتصادية إلا في نطاق محدود ويجعل لها حدودًا تتمثل في:

١ - **تحديد ذاتي:** نابع من أعماق النفس بناءً علي التربية الإسلامية، وانتشار المفاهيم الإسلامية في المجتمع، يلاحظ أن التحديد الذاتي دون التحديد الموضوعي ظل هو الضمان الوحيد لأعمال البر والخير بين المسلمين بعد انتهاء تطبيق الشريعة الإسلامية وخسارة الإسلام لتجربته في الحياة، وفقدانه للقيادة السياسية والاجتماعية للحياة.

٢ - **تحديد موضوعي:**

أ- تشريعات محددة تمنع أعمالا محددة مثل: الغش، والميسر، والربا، وغيرها.

ب- إشراف ولي الأمر علي الممارسة الاقصتادية وإعطائها التوجيه الصحيح لصالح المجتمع وبما لا يهدد التوازن، فيمكن أن يؤمم أو يمنع من ممارسة اقتصادية معينة حتي ولو كانت في أصلها مباحة والمعيار في هذا الأمر هو مصلحة الأمة الإسلامية.

المشكلة الاقتصادية في الإسلام وحلولها:

تتمثل المشكلة الاقتصادية في نظر الرأسمالية في الندرة بمعني عدم قدرة الموارد الطبيعية على تلبية احتياجات الإنسان المتجددة، وتتمثل في الماركسية في التناقض بين قوى الإنتاج وعلاقات التوزيع.

أما في الإسلام: فيقول الله تعالي: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾(إبراهيم: ٣٤).

وتلك الآيات الكريمة تقرر في وضوح:

١ - أن الله تعالى قد خلق للبشرية من الثروات الطبيعية ما يلبي احتياجاتها جميعًا دون قصور ونفاد.

٢ - أن المشكلة تكمن في الإنسان ذاته بسبب أنه ظلوم كفار:

أ - كفار بعدم استخدامه الثروات الطبيعية، وعدم استثمارها بشكل علمي.

ب- ظلوم بعدم ممارسته عدالة التوزيع.

ولكن كيف عالج الإسلام هاتين القضيتين الأساسيتين وهي الإنتاج والتوزيع؟

أ - الإنتاج: يدعو الإسلام إلى التنمية الاقتصادية بالتحريض على ذلك عقائديًا وفكريًا وتشريعيًا.

- الإنتاج في الإسلام يخضع لمبدأ الإشراف المركزي.

- للدولة دور قيادي في التنمية الاقتصادية.

- الإنتاج يهدف إلى إشباع جميع حاجات الأفراد.

- يرفض الإسلام إنتاج الموارد الكمالية أو نصف الضرورية إلا بعد استكمال إنتاج الموارد الضرورية تمامًا.

- يرفض المجتمع الإسلامي إنتاج أدوات الترف والمجون رفضًا تامًا.

ب- **التوزيع**: العمل والحاجة هما أساسا التوزيع في الإسلام، ولقد نظم الإسلام التوزيع بشكل يضمن منع وقوع الظلم والاستغلال ولم يسمح بالتملك إلا بالعمل الاستثماري غير الاحتكاري، ومنع الإسلام التملك عن طريق الحيازة في الثروات الطبيعية.

يلاحظ أن الحاجة في التوزيع لعدم قدرة بعض البشر أصلا على العمل كالعاجزين مثلا، كما أن بعض الناس ينتجون أقل مما يحتاجون بسبب ضعفهم، وقد جعل الإسلام لهؤلاء وأولئك الحق في إشباع حاجاتهم. وضمن لهم نصيبًا من الثروة.

حقوق الفرد في المجتمع الإسلامي:

١ - حق الحياة.

٢ - حق الكرامة.

٣ - حق الحرية «حرية العقيدة - حرية إبداء الرأي - حق النشر».

٤ - حق العمل لكل قادر.

٥ - حق التعليم والعلاج المجاني.

٦ - حق كل مواطن «ذميًا كان أو مسلمًا» في المأكل والمسكن والمواصلات.

٧ - حق كل مواطن في الزواج وتكوين أسرة.

والسؤال الآن كيف تستطيع الحكومة الإسلامية تحقيق ذلك؟

إذا قررنا أن المجتمعات البشرية لم تشهد الفقر والظلم الاجتماعي بسبب قلة الموارد ولكن بسبب سوء توزيعها فإن الأمر يبدو واضحًا أن الفقر المدقع لا يوجد إلا بسبب الغني المترف.

كيف قضي الإسلام على الفقر والاستغلال:

مقولة إن الفقر ينشأ من قلة الموارد مرفوضة إسلاميًا بسبب كثرة الموارد التي أتاحها الله سبحانه للبشر. والفقر ينشأ إما عن عدم الاهتمام بالتنمية أو عن سوء التوزيع، وبالنسبة للأمر الأول فالإسلام يحث على التنمية كما تقدم شرحه وعلي هذا يبقي أمر واحد وهو استئثار قلة بالموارد وحرمان الأغلبية الساحقة، أو ما يعبر عنه رجال الاقتصاد بالاستغلال الاقتصادي والذي ينشئه:

أ - ممارسة البعض لأمور غير منتجة ما يشكل عبئًا على المجتمع كممارسة «الدعارة - القمار» وغيرهما مما حرمه الإسلام.

ب- ممارسة البعض لعمليات التهريب والرشوة والاتجار بقوت الشعب واحتكار المواد الضرورية وهي أمور يعاقب عليها الإسلام ويتوعد من يفعلها.

ج - إثراء البعض عن طريق الربا وهو محرم إسلاميًا.

د - احتكار ابعض للثروات الطبيعية وهو محرم شرعًا فإن هذه الثروات الطبيعية إما مملوكة ملكية عامة، أو مملوكة للدولة، أو مباحة إباحة عامة للجماهير ولا يصح فيها أخذ الفرد لأكثر من حاجته الشخصية فقط.

إن للإمام صلاحيات ضخمة بشأن اتباع الأسلوب الأمثل لاستغلال تلك الثروات بما يحقق مصالح الأمة.

هـ - ممارسة البعض لأساليب الإنتاج الرأسمالي وبالتالي امتصاص فائض قيمة العمل المأجور لصالحهم. والإسلام يرفض تملك الثروات الطبيعية عن طريق الاحتكار. ويرفض الوكالة والاستئجار في استغلال الغابات مثلا. ومن هنا لم يترك الإسلام أمام الفرد إلا العمل المباشر كشرط للتملك.

و - لم يبق أمام الفرد لممارسة الملكية الخاصة إلا العمل المباشر الذي يقوم به بنفسه وهذا بالطبع محدود بالنسبة لأثره علي التوازن الاجتماعي ومع هذا رتب الإسلام علي ذلك ظروفا وشروطا تمنع من خروجه

عن الحدود المرسومة له بل وخول الإمام حق تأميم أي ملكية إذا بدأت تمارس إخلالا بالتوازن الاجتماعي.

من هذا يتضح أن الإسلام قطع الطريق تمامًا على الاستغلال، وبالتالي لن يوجد فقر «لكثرة الموارد، وعدم وجود استغلال» أضف إلى ذلك تشريعات العدالة الاجتماعية تحصل على منهج فذ في تحقيق الحقوق المشار إليها سابقًا، وخروج المجتمع السعيد إلى عالم الوجود.

العدالة الاجتماعية في الإسلام:

الحديث عن العدالة الاجتماعية في الإسلام يعني أساسًا ممارسة الدولة الإسلامية لدورها في تحقيق الرخاء لكل مواطن، وإعطاءه الحق كما سبق في التعليم المجاني والعلاج المجاني، وأن تكفل له الدولة المأكل والملبس والمواصلات كما سبق توضيحه. هذا من ناحية، ومن ناحية أخري ممارسة صلاحيتها بشأن منع الاستغلال وتحقيق التوازن الاجتماعي. وعلي هذا فإنه وبالإضافة إلى ما تقدم فإننا بصدد بحث:

١ - **التوازن الاجتماعي.**

٢ - **الضمان الاجتماعي.**

١ - **التوازن الاجتماعي:**

في مفهوم الإسلام «ألا يكون المال دولة بين الأغنياء» وهو عدالة

توزيع الثروة، وهو تضييق الفوارق بين طبقات الناس هو أن نجعل الفرق بين أكثر الناس غني وأقلهم غني «وليس أفقرهم فليس في المجتمع المسلم فقير» فرقًا في الدرجة وليس تفاوتًا رهيبًا كما نري ونلمس في سائر الأنظمة الاقتصادية المعاصرة. والدولة تحقق ذلك عن طريق:

أ- فرض ضرائب ثابتة تؤخذ بصورة مستمرة وينفق منها لتحقيق ورعاية التوازن العام.

ب- إيجاد قطاع لملكية الدولة وتوجيه الدولة لاستثمارها لأغراض التوازن.

ج- طبيعة التشريع الإسلامي الذي ينظم الحياة الاقتصادية في مختلف الأحوال.

والحكومة الإسلامية ملتزمة في هذا الإطار بضغط مستوي المعيشة من أعلي بتحريم الإسراف، وبضغط مستوي المعيشة من أسفل بالارتفاع بمستوي الأفراد، علي أن مفهوم الإسلام للغني ليس تلبية للحاجات الضرورية فقط بل أن يملك الإنسان ما يأكل ويلبس ويسكن ويتزوج ويحج ويتصدق أيضا. فالفقير في نظر الإسلام هو من لم يظفر بمستوي من المعيشة يمكنه من إشباع حاجاته الضرورية والكمالية بالقدر الذي تسمح به حدود الثروة في البلاد، وبقدر ما يتسع مستوي المعيشة يتسع المدلول

الواقعي للفقر فإذا اعتاد الناس مثلا استقلال كل عائلة بدار أصبح حرمان عائلة من دار مستقلة مملوكة لهم لونًا من الفقر «أي أن الإسلام لم يعط مفهومًا ثابتًا للفقر» وعلي هذا فالتوازن يعني إغناء كل فرد «مسلما كان أم ذميًا» بالقدر الذي يتناسب وإمكانيات المجتمع في ذلك الوقت.

٢ - الضمان الاجتماعي:

هو ضمان الأمة لتلبية حاجات جميع أفرادها حتي تشيع بينهم الطمأنينة فيندفعوا إلي الإنتاج غير عابئين بالنتائج ما دامت حاجاتهم مكفولة أصلا من قبل المجتمع، ويعتمد ذلك الضمان علي:

أ - التكافل العام فالمسلم أخو المسلم وكفالته واجبة عليه وعلي الإمام إجبار المسلمين علي ذلك إذا لم يحققوها بأنفسهم، ومن هنا فإن علي المسلمين ألا يظهر بينهم محتاج وإلا أثموا جميعًا وأصبح علي الإمام إرغامهم علي دفع غائلة الحاجة عن ذلك المحتاج.

ب - حق الجماعة في موارد الثروة وحيث إن الثروة أصلا استخلاف من الله للجماعة فإن حق كل فرد في الجماعة في كفالة حاجته مصونة إسلاميًا وعلي الإمام:

١ - أن يوفر العمل لكل قادر.

٢- أن يكفل المحتاج بالشكل الذي يغنيه وطبقا لمفهوم الإسلام عن الغني.

والسؤال الآن فرضا إذا لم تكف تلك النظم لدفع الحاجة بسبب القحط أو المجاعة أو غيرها من الأسباب؟؟

الجواب يتمثل في دراسة نموذج عمر بن الخطاب في مواجهة عام الرمادة.

***

٤٣ - التنمية المستقلة

لماذا نطرح التنمية المستقلة كعنصر مهم من عناصر المشروع الحضاري الإسلامي، ومن المفروض أصلا أن الكون كله لله وبالتالي فإن ثروات هذا الكون تكون لجميع عباد الله وعن طريق التعاون بينهم.

والإسلام أصلا يحض علي التعاون بين البشر لاستثمار الثروات ويجعل حبس وسائل هذا الاستثمار من علوم وتقنية جريمة وإثماً كبيرا، كما يؤكد علي حقيقة عدالة التوزيع بمعني أن تكون هذه الثروات لصالح جميع البشر وليس مجموع منهم فقط.

والله تعالي وضع في الأرض والكون من الثروات ما يكفي لسد حاجة كل البشر بل وتكفي أضعافهم آلاف المرات بشرط بذل الجهد في الكشف عن الثروات وتوزيعها بعدالة يقول الله تعالي: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾.

ظلوم بمعني: لا يوزع الثروات بعدالة، وكفار بمعني: لا يبذل الجهد

الملائم في الكشف عنها، لأن الكفر لغويًا يعني الستر وعدم الكشف والجحود.

نحن إذن نطالب ونحرص علي التعاون بين البشر في كل مجال والمجالات الاقتصادية خصوصًا، ونريد أيضًا ترقية وتحسين وسائلنا الإنتاجية بأحدث وسائل العلم والتكنولوجيا، ولكن هناك ظرفًا عالميًا خاصًا يعيشه العالم الآن يحتم علينا خيار التنمية المستقلة، ذلك أن أوروبا استخدمت تفوقها العلمي والعسكري في قهر العالم أجمع ونهبه وضاعت العلاقات الاقتصادية الدولية بحيث تصب في النهاية لمصلحتها علي حساب الشعوب الفقيرة، وأصبح الحديث عن حرية التجارة حديثًا عن حرية النهب أساسًا بل وأصبحت مؤسسات مالية دولية كالبنك الدولي وصندوق النقد الدولي مجرد قفازات لتشويه البيئة الاقتصادية المحلية في الأقطار الضعيفة بحيث يسهل نهبها.

والاستعمار القديم والجديد وفي كل صوره عمل جاهدًا بالقهر والعنف أو بالخداع عن طريق الجيوش أو عن طريق اتفاقيات التجارة الدولية والنظام النقدي الدولي، والمؤسسات المالية الدولية علي صياغة البيئة الاقتصادية والاجتماعية في الدول الضعيفة بحيث تحقق للدول الاستكبارية أكبر قدر ممكن من النهب[1] وبالطبع فلا سبيل - طالما كان

(١) راجع في هذا الصدد د. محمد مورو - صفحات من كفاح الشعب المسلم في مصر - الزهراء للإعلام العربي.

هناك هيمنة ونهب أوروبي واستكباري - إلا اتخاذ طريق التنمية المستقلة، وقطع كل خيوط التبعية بل وكل ما أمكن من العلاقات الاقتصادية مع الدول الاستكبارية، والاعتماد على نمط من التنمية يعتمد على الثروات والخبرات المحلية - مهما كانت مختلفة - إنتاجًا واستهلاكًا.

علي سبيل المثال، فإن القوى الاستكبارية تحرص مثلاً على تشويه وتدمير البنية المحلية في قطاع البناء بمعني تشجيع ودعم بناء العمارات على النمط الأوروبي، فيتكدس الناس في شوارع ضيقة وعمارات عالية، وهذه تستلزم خامات وخبرات أجنبية في عملية البناء، وتحتاج بعد البناء إلى أجهزة تكييف نستوردها من الغرب، وتحتاج إلى مصاعد نستوردها أيضا من الغرب، وفي النهاية يحدث تكدس وازدحام في الشوارع فنحتاج إلى بناء كباري علوية نعتمد في بنائها طبعا على خامات وخبرات أجنبية ثم تحدث مشاكل رفع المياه التي تحتاج إلى ماكينات رفع من الغرب أيضًا، ومشاكل في الصرف الصحي تهدد صحة أطفالنا.. وهكذا كل شيء يصب في النهاية في جيب الغرب على حساب مواردنا المحلية ولو أننا فهمنا اللعبة، ونفذنا نمطًا من العمارة يراعي الاعتماد على الخامات المحلية والخبرات المحلية ويلائم المناخ ويأخذ مختلف العوامل الاجتماعية والمناخية في اعتباره لكان الأمر مختلفًا، حيث يمكن استخدام خامات من التربة المحلية وهذه لا تحتاج مثل الأسمنت إلى أجهزة تكييف وكذلك

في طريق تصميم المباني بحيث تكون ملائمة للتهوية ودرجة الحرارة، ولاحظ أن لدينا صحراوات واسعة فما الداعي إلى العمارات العالية وماكينات رفع المياه والمصاعد والشوارع المزدحمة، ألم يكن من الأفضل الاتساع أفقيا بدلا من رأسيا لتوفير أجهزة التكييف والماكينات والمصاعد بل وتوفير مصاريف الكباري العلوية.. وغيرها[1] وصناعات ومنتجات البلاستيك مثلا التي نهدر فيها الكثير بسبب الاعتماد على الخامات الأجنبية والخبرات الأجنبية التي يمكن الاستغناء عنها بصناعة الفخار المعروفة في الصعيد وهي صناعة قادرة على توفير أفضل أنواع الأواني فضلا عن تحملها الشديد للحرارة بعكس البلاستيك بحيث يمكن أن تكون كل الأواني وأدوات الطعام من الفخار، وهذا الفخار يعتمد على خامات محلية وخبرات محلية وهو من الناحية الصحية أفضل من البلاستيك الذي له أضرار مؤكدة من الناحية الصحية[2].

وكذلك صناعة الحصير في الريف المصري المعتمدة على نبات ينبت على شواطئ الترع أي مجانا هو نبات «السمار» ويمكن به الاستغناء عن

---

(١) المهندس حسن فتحي تجربة جديرة بالاهتمام في هذا الصدد وضعها في حيز التنفيذ في عدد من القري التي صممها وبناها ويمكن مراجعة كتابه في هذا الصدد بعنوان «عمارة الفقراء» كتاب اليوم.

(٢) د. محمد مورو - دفاع عن الاقتصاد الريفي - مجلة العالم اللندنية ١٩٨٥.

السجاجيد الفخمة والمفروشات البلاستيكية، وكذا صناعة الجريد من النخيل والتي يمكن بها صنع كل أنواع الأثاث المنزلي والمكتبي اعتمادا على خامة محلية وخبرة محلية، وكذلك الصناعات المنزلية المعتمدة على «الغاب» وهو نبت رخيص جدًا يزرع على حواف الأراضي والترع والمصارف ويمكن صناعة أواني حفظ الخبز أو تخزين الطعام منه وكل هذه الصناعات خاماتها رخيصة وموجودة وخبراتها أيضًا موجودة، وكانت بالفعل ولفترة قصيرة سابقة منتشرة في الريف إلا أنها بدأت تنهار بعد دخول صناعات البلاستيك وغيرها.

ونظرة واحدة إلى الريف المصري ترينا كيف تم ارتكاب جريمة بشعة، جريمة نهب تحت شعار التحديث، فالبيت الريفي مثلا كان يعتمد في بنائه على الطوب اللبن المصنوع من التربة المحلية، والسقف من الجريد والغاب، وفي هذا البيت يوجد فرن لصناعة الطعام ولصناعة منتجات الألبان ويستخدم أيضا في التدفئة، وهذا الفرن يعتمد في وقوده على روث المواشي وعلي قش الأرز والذرة وحطب القطن، وكلها موجودة بكثرة في البيئة المحلية، وفي البيت الريفي توجد حظيرة للمواشي والطيور، أي هناك اكتفاء ذاتي من اللحوم والبيض ومنتجات الألبان، كما أن هذه المواشي كانت تقوم أيضا بحمل المنتجات الزراعية من الحقل إلى المنزل

وحمل السماد البلدي ولوزام الزراعة من المنزل إلى الحقل مثل الجمال والحمير والبغال، أو تقوم بإدارة ماكينات الري «الساقية والطمبوشة» وكذلك جر المحراث والقصابية وغيرها من آلات الزراعة وكان الفلاح يستفيد بكل هذا في تكامل شديد وبدون اعتماد على خامات أو خبرات من الخارج، أي نمط تنمية مستقل، أما الآن فالبيوت أصبحت من الأسمنت والحديد، ولا حظائر للمواشي، أي لا سماد بلدي، ولا لحوم ولا بيض ولا إدارة للآلات الزراعية ولا نقل عن طريق تلك المواشي، ولا فرن محلي، بل الاعتماد على الخبز المصنوع والطعام المصنوع على أفران البوتاجاز أو السولار، أي هناك حاجة مستمرة لعربات نقل، وسماد كيمائى، ووقود غازي أو سائل للأفران والمواقد، ولا حظائر للتخلص من الزبالة والمخلفات، التي كانت تتحول إلى سماد بلدي بدلا من شبكات صرف صحي، أي أن الإنتاج الريفي لم يصبح مستقلا بل معتمدا على الخارج أي دخل في دائرة النهب العالمي المعروفة.

وفضلا عن هذا فإن الفلاح المصري مثلا كان يبدأ يومه عقب صلاة الفجر مباشرة حيث يصطحب المواشي ويذهب إلى الحقل فيعمل في ضوء الشمس طوال النهار، ويعود بعد أذان المغرب، لينام عقب صلاة العشاء، أي أنه كان يستخدم ضوء النهار كله، ولكن الآن تعود على السهر بعد أن

اختل نظام الإنتاج، لأن نظام الإنتاج القديم كان يفرض عليه الاستيقاظ مبكرا والنوم مبكرا، أما الآن فيمكنه السهر إلى ساعة متأخرة من الليل بما يترتب عليه من استهلاك للوقود، فلا عن تشويه العلاقات الاجتماعية الريفية التقليدية.



فهرس المحتويات